جان بول سارتر

الوجودية

مذهب انساني



منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

جان بول سارتر

الوجودية

مذهب انساني

قدم له

الدكتور كمال الحاج

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان



نحن والوجودية

لا ريب في ان الوجودية ، الحديثة ، هي فلسفة القرن العشرين . هكذا سيصنفها التاريخ . وقد بدأ . انها صرخة الانسان ، من أعماق أعاميقه ، في وجه القدر . انها صورة عن مأساته في هذه الدنيا العابثة .

الواقع ان الانسان لم يهلع ، حيال وجوده ، كما هلع اليوم اذ استنطق ذاته . ولم يتنمرد ، بكبرياء وعنجهية ، على كيانه المعطوب ، وشخصه المثغور ، كما تنمرد اليوم . وبالتالي ، لم يقبض على جذوره ، بيقين وشك معاً ، كما قبض اليوم .

الوجودية ، الحديثة ، هي اعنف ردة فعل على الطفاوة ، التي يعايشها الانسان ، منذ زمن بعيد ، مطمئن البال ، هادىء القلب ، ناعم الخاطر ، ساكناً سليماً . لقد نخعت كلّ قواه ، الراقدة ، الراكدة ، ورمته في نواعير مصيره .

* * *

لندخل في صلبها . بماذا تتميز من باقي الفلسفات التي نعرف ؟ وبكلمة كيف نحددها ؟ ونربطها بالعصر الذي نحن فيه ؟ عندنا

ان الوجودية ، الحديثة ، تتصف بميزات اربع : اشارتهـــا الى أبدية الفلسفة . دفاعها عن الوجود . امتدادها لحالة اجتماعية . موقفها من قضية الله .

* * *

١ – الوجودية في خطوطها الرئيسية

اشارتها الى بداية الفلسفة

ظن الكثيرون ، من قادة الفكر ، بعد القرن الثامن عشر ، أي بعد ظهور العلم بمعنى الايجاب والاختبار ، ان عهد الفلسفة قد انقضى . قالوا انها ترهات . لذا يجب على الانسان ، منـــذ الآن ، ان يعود الى راهنـــه المادي ، الاجتماعي ، لأن الطيران خلف هذا الراهن ، من وجودنا ، لا يفضي بنا إلا الى نسج واه من النظريات الهشة . وحسبنا الرجـوع ، فقط ، الى الحالات الثلاث التي بسط لنا فيها ، اوغست كومت ، كيف ان البشرية بدأت باللاهوت ، وانتهت بالعـــلم ، مروراً بالفلسفة ، لنرى ان كومت ، وعديدين غيره ، في القرنـــين الماضيين ، اعتقدوا ان الانسانية طلقت الفلسفة ، وتمسكت بأهداب العلم الايجابي . وارنست رينان أطلق في كتـــابه ، مستقبل العلم العبارات ذاتهـــا على الفلسفة . وقـــد ضخم عمانونيل كانت ، في كتابه نقد العقل النظري الصافي، سلبية كل المحاولات الفلسفية، عند القدامى من أربابها .

* * *

وماركس ? ألم يضربها بالحرم القاطع ، مظهراً انها دون جدوى ، بعد الآن ، في كتابه بؤس الفلسفة ، الذي رد به على

برودان في كتابه **فلسفة البؤس** ؟ جميعهم قالوا انهـا غيبيات مضلة . وقد ضاق الانسان ذرعاً بها . يئس منها لأنها لم تعطه مـا أراد من الراهن الثابت . لذلـك لم يتنكب **ماركس** عن ان ينعيها ، اخيراً ، بشكل نهائي ، مما أدى الى شطب اسمها من كل المناهج ، المدرسية ، في البلاد التي **تمركست** . قالوا انهـا مضيعة وقت . وقـد حان الوقت لاعلان افلاسها لأنها لا تتجـاوب أصلاً مع واقع الانسان . كان لها يوم رواج ، ثم تجووزت تمامـاً . المهم ، بعد ظهور العلم الاختباري ، سيما الآلتية[1] ، ان يعتكف الانسان على حقيقته الاجتماعيـة ، والمادية ، التي يستطيع بها ان يحسِّن وضعه ، في هذه الحياة الدنيا .

* * *

ذلك ما ادعاه الكثيرون ، بعد ظهور الاكتشافات العلمية ، منـذ القرن الثامن عشر . ولا شك في ان الفلسفة شهدت انتكاساً فاضحاً خلال القرنين الماضيين . العقول الزاخمـة لم تنتج مذاهب فلسفية كبـيرة على غرار التي عرفها اليونان والقرن الوسيط فما بعد . ولكن الوجودية الحديثة بعثت الفلسفة من جديد بقوة ناشطة تعيد لذاكرتنا مجهودات الكلاسيكيين من القدامى الجبابرة . لأنها لا تقل عمقاً ، او ارتفاعاً ، عن اضخم العمارات الشاهقة ، التي ورثناها عن الغابرين .

* * *

وهل هذا إلا الدليـل ، الذي ما بعده دليـل ، الى ان الانسان لا يستطيع التنازل عن الفلسفة ، مهما تقدم في العـلم ؟

---

(١) Le machinisme

الفلسفة أصلا نظرة موحّدة في الوجود . العـــلم ، او العلوم بالاحرى ، تمدنا بنظرات مجزأة ، او مجزئة ، كل في ناحيـة خاصة ، من نواحي الوجود . الرياضيات في الارقـام . الفيزياء في الجوامد . الكيمياء في السوائل . الاقتصاد في المال . الطب في الجسم . الى ما هنالك من ابواب مختلفـــة متنوعة . لكن العقل البشري ، من حيث هو مـا هو عيناً ، لا يقبـل بالكثرة والتجزئة . لا يقنع بالتبويب الفاصل . لقد فطر على الوحـدة ، التي يُرجع بهـا كل العناصر والمظـاهر ، المتفارقـة ، الى سند مشترك واحد ، يكون ألفها وياءها ، باعتباره الجوهر الاصل .

* * *

تلك هي الفلسفة لبّاً ... أن يبحث العقـــل عن منطلق فرد لكل الاشياء البرّانية والحالات الجوّانية . وقـد أعادت الوجودية الحديثة ، على مسامعنا قصة هذه المحاولة الماورائية ، التي تكررت دائماً . أعادتهـــا بزخم يساوي زخم القدامى . وبضرب في الاعمـاق يساوي ضرب القدامى في الاعمـاق . اذ انها بناء شاهق ، ناطح ، له شرفات عديدة ، بعيـدة المدى ، ككل الفلسفات الكبيرة في الماضي ، تعكس احوال القرن العشرين ، من كل صوب . الوجودية الحديثة ، حلقـة عامرة في سلسلة الحلقـــات ، التي تؤلف تاريـخ الفلسفة . وهكـذا استطـاعت ان تدحض الزعم ان الفلسفة قـد أفلست ... او قد اضمحلت الى الابـــد من وجود الانسان . نحن اليوم في عصر يمكن تسميته بعصر الوجودية .

* * *

الوجودية الحديثـة ، التي نعني ، ليست وجودية هـــذا الوجودي ، او ذاك ، او ذلك ، من الوجوديين المحدثين . وانما

هي تلك الدفعة ، الهائلة ، الطافحة ، التي تحوش بين جنباتها ، العامرة ، العارمة ، جهودات كل الوجوديين المحدثين ، مهما تضاربت فيما بينها ، منذ اواسط القرن التاسع عشر . أجل ، ثمة نهر جارف ، جيّاش ، وصخّاب ، تصب في تجاويفه ، سويقيات من كل جهة ، هي التي غذته بقوة وسخاء ، حتى ادرك مستواه . من الخطأ ، والحالة ذه ، ان ننسب الوجودية الحديثة الى فيلسوف واحد ، مهما علا كعبه . جميعهم بنوها . ولا عجب . ان الفلسفة الكبيرة تعبر عن عصر كبير .

* * *

دفاعها عن الوجود

الوجودية الحديثة ، والتسمية تشير الى ذلك ، تنطلق من الوجود . اذن هي ارتداد ، على الجوهرية القديمة : التي تنطلق من الجوهر . والجوهر قيمة عامة . الانسانية ، مثلا ، المحبة ، الوفاء . تلك جواهر تتميز بالشامل الذي لا يعود الى وجود شخص . لأن وجودها هو في ان لا يكون لها وجود . هذا يعني ، لو اردنا ان نمعن النظر ، قليلاً ، ان الجوهر يتصف بشيئين : غياب الشخص وغياب الالم .

* * *

غياب الشخص ، او الوجود الشخصاني ، امر طبيعي في الجوهرية ، التي تقوم على تجريد الشيء من طوابعه الفردية ، العينية ، ليقع هكذا تحت عنوان الشامل . ذلك هو الجنس او النوع . الانسانية لا الانسان . الكرم لا الكريم . الانوثة لا الانثى . لم ننس بعد المثل الافلاطونية . بذا تسترق السماكة الوجودية ، حتى تتبخر ، فلا يعود من قيمة إلا للعام . وهكذا

يصبح الجوهر كالفضاء الذي لا وجودات فيه . او كالليل الحالك الذي يضم كل الوجودات فتذوب . في الجوهر تتسطح النتوءات .

* * *

من اولى نتائج الجوهرية ، واقواها بلا ريب ، ان الألم غائب تماماً . لا صراع ولا تمزق . لا دموع ولا تحرق . وبالتالي لا نضال ولا مقاومة . اذن لا مسؤولية ايضاً . ولهذا لم تتسم الجوهرية بالرومانسيّة . انها العقل الواضح المتميز البدهي . لا شك في انها على انواع تنبع ،كلها ، من هذا المبدأ العام، المشترك فيما بينها . العقل معيار كل شيء . والعقل جرّيد . من هنـا غيـاب الألم الذي يصدر عن الشخص . والشخص هو انا أو انت أو هو . الانسانية كجوهر لا تتألم . انا الذي أتصف بعينيات ، عائدة لي ، أتألم فأصرخ من وجعي ، او تأنيب ضميري . لذا كانت الوجودية رومانسيـة النزوع . الجوهريـة كلاسية الاتجاه ، ذات نظرة بيضاء . لا غصة فيها ولا اختناق . لا عبث ولا قرف . وانمـا ترتيب صاعد من احقر غـبرة على شاطىء البحر الى اشرف نجم في كبد السماء .

* * *

مالنا الا ان نستعرض الفلسفات الجوهرية ، عامة ، منذ الافلاطونية الى السبينوزية ، فمـا بعد ، مروراً بالجوهريـات القروسطية ، لنرى بجلاء ان العاطفة لا تلعب ، فيها ، دوراً حاسماً . وقد تبالغ الجوهرية بلا انسانية الانسان الى درجة التغاضي عن كل ما يشحنه وجودنا من فرّ وكرّ في معركة المصير . انها انسلاخ عن المادة والمجتمع . وتأكيداً لذلك نقرأ

من التلويحات الافلاطونية كما نقلها لنا بهاء الدين . قال افلاطون:

« ربما خلوت بنفسي كثيراً عنـــد الرياضات . وتأملت احوال
« الموجودات المجردة عن الماديات . وخلعت بدني
« جانباً ، وصرت كأني مجرد ، بلا بدن عار عن
« الملابس الطبيعية. فاكون داخلاً في ذاتي ،لا اعقل
« غيرها ، ولاانظر فيما عداها وخارجاً عن سائر
« الاشياء . فحينئذارى في نفسي من الحسن والبهاء
« والسناء والضياء والمحاسن الغريبة العجيبة الانيقة
« ما ابقى معه متعجباً حيران باهتاً . فاعلم اني جزء
« من اجزاء العالم الاعلى الروحاني الكريم الشريف.
« واني ذو حياة فعّالة ثم ترقيت بذهني من ذلك
« العالم الى العوالم الالهية والحضرة الربوبية . فصرت
« كأني موضوع فيها معلق بها فوق العوالم العقلية
« النورية . فأرى كأني واقف في ذلـــك الموقف
« الشريف ، وارى هناك من البهاء والنور ما لاتقدر
« الالسن على وصفه ولا الاسماع على قبول نقشه .
« فاذا استغرقني ذلك الشأن وقلبني ذلـــك النور
« والبهاء ولم اقو على احتماله هبطت من هناك الى
« عالم الفكرة فحينئذ حجبت الفكرة عني ذلك
« النور فأبقى متعجباً اني كيف انحدرت من ذلك
« العالم . وعجبت كيف رايت نفسي ممتلئةنوراً وهي
« مع البدن كهيئتها . فعندها تذكرت قول مطريوس
« حيث امرنا بالطلب والبحث عـن جوهر النفس
« الشريف والارتقاء الى العالم العلي »

* * *

هذه هي صماصيم الجوهرية بما فيها من نزوع نحو تهوين المادة ، واعتزال المجتمع ، والارتفاع عن كل ما يعود الى الانسان — الشخص ، لأن الحقيقة هي في العالم الروحاني المفارق للجسم الذي لنا . الوجودية الحديثة على العكس من ذلك . انها تضرب في قاع الشخص الذي هو انا او انت او هو . في احاسيس جسمه . في افكاره الخاصة ، ومشاعره الخاصة . في ما له من ماض خاص ، وحاضر خاص ، ومستقبل خاص به . من الشخص بالذات تنطلق نحو اللاشخص في الشخص عينه . وهكذا تتغلغل في الطبيعة والمجتمع ، فلا يعود بالامكان ان نفصل بين الوجود والجوهر ، في الشخص الانساني الواحد . الانسانية ليست خارج الانسان : ليست بعيدة عنه ، ازاءه ، او خلفه ، او فوقه ، اوعلى قاب قوس منه . هي نفسها ذلك الذي هو انا . وبذا اغدو مسؤولاً . اذ لا مسؤول الاوهو شخص معين عن شيء معين . والمسؤولية تنبثق من ارادة تتجاوز العقل . هنا يظهر الالم وتبين البطولات . هنا يقوم الانسان باكبر مغامرة تجاه انسانه في معركة المصير . ولوكانت الامور تدرك بالعقل ، وتخضع للعقل ، وتبت عقلانياً على اساس المنطق ، اللاشخصي ، لما تألم كائننا في المواقف الحرجة . لما تمزق وصرخ واندفع مغامراً . لما كانت التضحيات والفداءات . لما كان التاريخ .

* * *

امتدادها لحالة اجتماعية

لبعث الوجود ، او الشخص ، الى عالم التقدير فالصدارة بالنسبة الى الجوهر ، او اللاشخص ، اثر بعيد في ميدان

السياسة . ولا عجب . فالوجودية الحديثة تقول بالالتزام . ولا التزام الا في المجتمع القومي . لذا نرى غالبية الفلاسفة الوجوديين ، اليوم ، يخوضون السياسة من حيث انها توجيه .

* * *

نعلم اننا عايشنا ، وما زلنا نعايش الى حد ما ، انظمة دكتاتورية . والدكتاتورية عدم ايمان بالانسان الشخص . وقد يكون النصف الثاني من القرن الماضي ، والنصف الاول من القرن الحاضر ، قرني الدولة الدكتاتورية بمعناها الصافي . فما لنا إلاّ ان نستعرض التيارات السياسية ، منذ مصطفى كمال ، حتى نرى كيف انفشلت الدكتاتوريات ، من هتلرية وموسولينية وستالينية ، اعطت للدولة أسبقية وفوقية بالنسبة للشخص . الشخص في سبيل الدولة . هذا هو شعار الدكتاتورية ، اي شعار السياسة التي مررنا بها ، منذ جيل على وجه التقريب . وقد جاءت الحربان العالميتان ، وما تبعهما من خضات اجتماعية ، في العالم ، دليلاً قاطعاً الى ان الدكتورية هي التي تسيطر ، حقاً ، على مصائر الاشخاص .

* * *

الوجودية ترفض دكتاتورية العام ، لانها ترفض افناء الشخص في سبيل الدولة . هي مع الشخص اولاً . ولذا كانت الحرية من اضخم ابوابها . نعتبرها اذن ردة فعل للانظمة الدكتاتورية في ميدان السياسة . وقد تجسمت ثورتها السياسية ، في اقطابها ، أمثال هيدغر ويسبرس عند الألمان ، ومارسال وسارتر عند الفرنسيين . فاننا نشهد لهم من المواقف ، ضد كل

محاولة سيطرة ، على الشعوب المستضعَفة ، ما يجيز لنا ان نعتبر الوجودية اكبر دفـــاع ، صارم ، عن انسانية كائننا الحر اساساً . هنا لا بد من الاستشهاد بكلام **كارل يسبرس** في كتيبه **القنبلة الذرية ومصير الانسان** . قال :

« ان قوة الطغيان قد تسلب العالم نعمة الحرية . ففي حرب
« تخوضها جيوش كبرى ، باسلحة كلاسية ، وتستخدم
« فيها جميع الوسائل الفنية المعروفة ، باستثناء
« القنبلة الذرية ، سوف تكون الدول الدكتاتورية
« الحالية هي الاقوى . لذلك قد تجد الدول الحرة
« نفسها ، في حرب من هذا القبيل ، امام احد
« امرين : اما استخدام القنبلة الذرية واما الرضى
« بالطغيان ، اما تعريض الإنسانية للدمار واما
« التخلي عن الحرية . ومتى ضاع كل أمل ، في اتلاف
« القنبلة الذرية ، واقامة رقابة متبادلة ، فحمايـــة
« العالم الحر بالاسلحة الكلاسية تتطلب من الشعوب
« تضحية راهنة للحرب . هذه التضحية تكون
« ببذل جهد اقتصادي وتدريب عسكري . اما
« اذا اخفقت ، بشكل أكيد ، محاولة تنظيم التضامن
« المطلق سياسياً ، بين الدول الحرة ، فقد يأتي
« وقت ، عندئذ ، وسيأتي بغتة بلا ريب ، يتسلم زمام
« الحكم فيه اشخاص تساعدهم الظروف ، وتعينهم
« قوة التصاعد السياسي ، فيقررون ما اذا كان
« يجب ، اولاً ، استخدام القنبلة الذرية . وحينئذ
« يضيع كل رجاء في اللجوء الى امكانات واحتمالات
« أخرى » .

تلك احدى صرخات الوجودية في وجـه الدكتاتوريات .

ويعود هذا التدخل في السياسة ، من قبلها ، الى اعتبارهـــا الانسان كائنـاً حراً ، بالأساس . وقد نوهنا بذلـك . ثم الى اعتبارها اياه علاقة اجتماعية ايضاً . الأنا بحاجـــة الى الأنت لتــــدرك الانا التي هي . يعني لا أنا بدون انت . الامر الذي ينفي امكان الاعتزال ، او الحياد ، او التنسك بعيداً عن تقلبات المظاهر الأجتماعية . لقد رُكزت الانت في الانا تركيزاً جبليّــاً . الانسان – في – المجتمع . هكذا تسميه الوجودية . من العبث ، اذن ، ان نبحث عن حقيقتنا الانسانية ، الحرة ، في غـير الوسط الاجتماعي . والسياسة هي اسمى الاشكال التي تظهر من خلالها تلك المجتمعية . السياسة ، هنا ، بفحواهـــا الخالص ، طبعاً . ذلك لانها تحوش اكبر عدد ممكن من الناس في رابطة قومية موحدة . ولان الانسان لا يعبر عن انسانيته ، بالجملة ، الا في نطاق الشعور القومي الصحيـــح . وللشعور القومي قاعدة وجوديه في السياسة . لذا لم يعـد بامكان الفلسفة ان لا تتسيَّس ، ولا بامكان السياسة ان لا تتفلسف . اذ لا حياد بعد اليوم . من هنا اهتمام الوجوديين من الفلاسفة المحدثين بكل القضايا السياسية . وقـد اضطهدتهم الدكتاتوريات . فالهتلرية نقمت على هيدغر . وسارتر هو في مهب العاصفة .

* * *

امر آخر يجعل الوجودية فلسفة انضواء بالمعنى الكامـــل . لقد اقامت المادة في صميم كياننا الانساني. الانسان جسم ايضاً. والجسم جزء من الطبيعة . الانسان – في – الطبيعـة . هكذا تسميه الوجوديـة . فكل محاولة تهوين للمـادة هي تهوين للروح في الوقت نفسه . اذ لا روح بدون جسم . ولا جسم بدون

مادة . اذن الانسان مجبر على الانخراط في مجالات المادة ، والمجتمع ، من اجل الوصول الى كنه حقيقته الروحية . لا نبالغ اذا قلنا بانّ الانسانية لم تشهد ، كالوجودية ، محاولة زواج محكم بين المادة والروح .

* * *

موقفها من قضية الله

من الصعب ان نتحدث عن الوجودية ، اليوم ، دون المرور بموقفها من قضية الله . الوجوديون ، من هذا القبيل ، فئتان . مؤمنون وملحدون . لن نتكلم عن الاولين لان اراءهم كلاسية . الملحدون أشيق موضوعاً وذلك لسببين : الوجودية الملحدة تعكس حالة اجتماعية صاخبة في القرن العشرين . سارتر ، الذي يعتبر أبا الوجودية ، هو ملحد فاقع . ولا يجوز التحويم على الوجودية ، الحديثة ، دون الالتفات الى سارتر ، بصورة خاصة .

* * *

سارتر لم يُخْفِ إلحاده . أعلنه دون مواربة . وقد يكون الإلحاد من أبرز مميزات بنائه الفلسفي . هذا الالحاد ، عند سارتر ، وعند قسم كبير من الوجوديين ، الدائرين في فلكه ، امتداد لحالة رجدانية سالبة ، لديهم ، هي ذاتها امتداد لحالة اجتماعية سالبة . لقد عايشت أوروبا حربين عالميتين طاحنتين ، خلال فترة قصيرة من الوقت ، ذاقت بسببها الامرين قتلاً وحرماناً ، حداها على اليأس الكلي . لم تعد تؤمن بوجود قيم سماوية حافظة للانسان . من هنا الرومانسية المتطرفة التي

تتميز بها . انها ردة فعل لكل ايمان عقلاني غير معذب .

* * *

نقف عند سارتر . الذي يطالع أدبه ، وأدب غيره من لفيف الوجوديين ، السائرين في خطاه ، يرى بوضوح ذلك التمرد على السماء ، الذي لم ينتج عن نزوع عقلاني ، اي عن ان الانسان لم يتمكن من التدليل ، ايجابياً ، الى ان الله موجود . بالعكس . لقد صدر عن الإرادة التي رفضت الايمان به . والرفض يفترض وجود المرفوض . اذن الله موجود ، ولكن الإرادة ترفضه . انه الحاد هجومي لا يأبه لبراهين العقل العقلانية .

* * *

لسنا بحاجة الى التغلغل ، بعيداً ، في مؤلفات (**المتسترين**) لترى الحادهم ينبثق ، دون شك ، من يأس وخيبة أمل . من ألم وتمزق . من غصة في النفس . لا من ارقام ، ومعادلات ، ومقاييس ، ومقولات . أي من تهافت العقل في محاولاته العقلانية . الوجودية انفجار عاطفي ، بسبب الإرادة التي لا تريد ، لانها حرة كل الحرية . الحرية مطلقة . هكذا يدعي الوجوديون الملحدون . لا شيء يقيدها ، لانها لا تتجزأ . يعني ان انصاف الحريات لا يمكن ان تكون . الحرية حرية في السلب والايجاب . انا حر ايضاً ان لا افعل ما يجب فعله ، وإلا كنت عبداً لحرية هي ليست بحرية . ان يكون الله موجوداً ، او ان لا يكون ، امر لا شأن له عند سارتر . على العكس . ان الله موجود . ولكن المهم هو ان اصفع وجوده

بجريتي الكاملة .

* * *

بأنن ، بوضوح لا شك فيه ، ههنا ، ان رفض الوجوديين ، الملحدين ، وليد حرد وعناد . وليد آمال اخفقت . وليـــد اشتهاء لم تجر الرياح كما تريد سفنه . وهو انعكاس لحالة اجتماعية كانت فرنسا تتخبط فيها . كانت في الدركات ، اقتصادياً وسياسياً ، بعد الحرب العالمية الثانية . كانت منكسرة الظهر ، محطمة الخرزات ، مسحوقة مداسة . اما النتيجـة فانهيار اعصاب ، وتهافت اخلاق ، وتخريب ايمان ، ويأس مركوز . لا دهش ، والحالة هذه ، اذا ألحد الانسان من قبيل النفس . انها حالة عابرة يشفى منها المرء ، عندما يتعافى تماماً . الالحاد تعبير عن وضع شاذ . عن حالة في النفس مريضة . هذا ما يحدونا على الامل ان سارتر سيرجع عن إلحاده بشكل يضمن لبنائه الفلسفي الانسجام في ترابط مراحله . الواقع ان الالحاد غير ممكن كمبدأ مطلق . غير ممكن عقلاً وفؤاداً . نقبله حالة وجدانية عابرة ، كالذي يشتم عن غضب ، ثم يؤوب الى هدوئه ، فلا يشتم بعد ذلك . اما ان يشتم ، ويظل يشتم ، ويشتم دائمـاً وابـداً ، على اساس ان الشتم هو القاعـدة الايجابية ، التي تقوم عليها آداب وجودنا ، فانه التناقض بذاته . ذلك السلب السالب يكذبه العقل والقلب معاً .

* * *

عند سارتر بعض اللمـع التي تشير الى العودة . سيرجع . اذ كثيراً ما يشدد على التفاؤل . على وجوب النفاذ الى الملاك ، في الانسان ، ولكن من خلال الشيطان . الى السماء من خلال

الارض . الى الابتسامة من خلال الدمعة . الى الامل من خلال اليأس . يعتقد سارتر ان المقلب التحتي يجب الاهتمام بـه . يخطىء ، في نظره ، كل من يهمـل التحتيات ، او يقفز من فوقها ، ليدرك توأقمم العلاء . اذ لا بد من الدركات في سبيل الدرجات . تفكير سارتر ، هنا ، على اكمـل حـق . وهو لايتنافى ، اطلاقاً ، مـع تعاليم الدين ، اساساً . وعندنا ان سارتر سينفذ الى النور بعد ان ينتهي من تصوير الظلام . هـذا املنا . سارتر شاوول هـذا الزمن . المضطهِد سينقلب الى مبشّر . المبغض الى محب . اللاعن الى مبارك . سارتر يبحث عـن اله . وهـل ثمـة اثنان ؟ اجـل سيعود . وقـد بدت الطلائع تظهر .

* * *

٢ – الوجودية والعالم العربي

حاولت ، في القسم الاول من هـذا البحث ، ان اعرض خطوط الوجودية ، الحديثه ، عرضاً فيـه اختصار وجـدة . السؤال ، الذي يجب طرحه ، كنتيجة لما سبق ، هو التالي : ماذا تفيد العالم العربي فلسفة من الغرب كالوجودية الحديثة ؟ تتطارح هذا السؤال لأن الوجودية الحديثة مدرسة فكرية لها مساس بحالة اوربا مـن الوجهة الاجتماعية والسياسية . اذن يجب ان نغربلها لنرى ما الذي يتجاوب فيها مـع فطرتنا . اذ ان الاقتباس بها ، دون تمحيص ، وانتقاء ، يفضي بنا الى سلبية سالبة ، هي تقليد هدام لشخصيتنا .

الواقع ان الفلسفة لم تعد منفصلة عـن المجتمع . وكل مجتمع هـو مجتمع سياسي . يعني ان الفلسفة والسياسة مـرتبطان

بعضها ببعض . وذلك بموجب الارتباط ذاته الكائن بين الوجود والجوهر . فاذا اعتبرنا الفلسفة جوهراً ، او سقفاً ، اعتبرنا السياسة وجوداً ، اوقاعدة . ولا سقف بدون قاعدة . ولاقاعدة بدون سقف . وعليه فالطرفان يتجاوبان فيتواجبان. هذا من جهة المبدأ . لذا ، نحن في حالة من وجودنا الاجتماعي — السياسي ، لا تسمح لنا ان نحتضن الوجودية الحديثة ، دون ضربها على محك واقعنا . فماتحالف مع ذلك الواقع ارتضيناه ، وماتخالف معه رفضناه . وهكذا نتساءل : امن فائدة لنا ان نتبنى الوجودية ؟

* * *

حاجتنا الى الفلسفة

العبرة الاولى ، التي ينبغي لنا ان نقتاس بها ، من الوجودية الحديثة ، هي مبدأ واجب وجود الفلسفة : اجل ما زالت الفلسفة واجبة في كل تطور اجتماعي . وهذا ما نحن بحاجة اليه . ذلك لأن الناظر ، في تطورنا ، يرى بوضوح ، ان وعينا السياسي نتيجة تحديات سياسية ، من الخارج ، لاحصيلة اختمار فلسفي او مناقبي ، من الداخل . لقد سبقت السياسةُ الفلسفةَ . والاصح ، بل الاوجب ، ان تسبق هذه تلك ، او، على الاقل ، ان تسيرا جنباً الى جنب ، في مشية متوازية . الوجودية الحديثة ، كنظرة فلسفية ، هي عبرة لنا ان عصرنا ، الحالي هو عصر الفلسفة . ان المبادىء الفلسفية ما برحت توجه ، فيه ، سياسات الشعوب والامم جميعها . ذلك لأن الانسان لا يناضل الا في سبيل العقيدة . والعقيدة هي دائماً من باب الفلسفة .

* * *

الحق يقال ان الوعي السياسي ، في الشرق العربي ، لم يعطَ له فيلسوف بعد ، او مخطط عقائدي ، يقيمه على اوليات فلسفية عامة . هذا الغياب الفلسفي ، في سياساتنا ، هو الذي جعل الشارع يتحكم بها ، محدثاً من الثغرات القوية ، الفاضحة ، ما هو مراكز ضعف بين ايدي الاغيار . السياسة ، وحدها ، تنفذ . العقيدة تشرع . والمعنى بالعقيدة ، ههنا ، مبدأ شامل يتسامى به العقل الى حيث يستطيع ، ذهنياً ، ان يعلل كل مظاهر الوجود ، في نظرة موحدة . هذه العقيدة لم نستحر بها بعد .

* * *

يعترض ، على هذا ، باننا شعب ذو نزوع ديني ، بالاساس . وكل نزوع ديني يتنافى مع الفلسفة . ألم تخرج الاديان الكبرى من عندنا ؟ وعليه فنحن لسنا بحاجة الى نظرة فلسفية نعلل الكون في اضوائها . ونستمد زخمنا من تعاليمها . ونخطط بها مشاكلنا الواجبة . حسبنا الحصول على الحرية السياسية لنكون في طليعة القافلة

* * *

ـ اعتراض ، كذلك ، واه . ما استغنت السياسة يوماً عن الفلسفة . وهل سياسات الغرب ذاتها إلا امتداد للتفكير الفلسفي ؟ الشعوب القائدة هي شعوب متفلسفة لانها شعوب موجّهة . اذ السياسة لا ترسخ ، فتنهض الى المستوى الفارض نفسه ، بقوة ، الا اذا استحرت بروح فلسفية . التاريخ امامنا اكبر شاهد . السياسات الكبيرة نظرات في الوجود . ذلك لانها حضارات . والحضارات اطلالات موحدة على الحياة

ككل لا يتجزأ . باعتبارها تلك لا تستطيع مطلق سياسة ان تستغني عن الفلسفة . حتى الدين ، اصلاً ، يدخل في بابها ، على هذا الاساس . لانها أسمى درجات الادراك الذي تصل اليه واعيتنا البشرية . ما كانت معرفة صحيحة بدونها . ولا علم صحيح . ولا اقتصـــاد صحيح . ولا سياسة صحيحة . ولا عمران ، ولا فن ، ولا أدب . ان كل ظاهرة اجتماعية ، ممتازة ، قامت او يجب ان تقوم في مطلق شعب ، ينبغي لهـا ان تستند الى تخطيط فلسفي ، موجِّه . هل صاهرت سياساتنا الفلسفة ؟ هل عندنا تخطيط عقائدي صارم ؟ الواقع ، الذي لا شك فيه ، ان سياساتنا تنظيمات ادارية ، لا غير .

* * *

الذي يستعرض الاحداث السياسية ، في العالم العربي ، يرى بجـلاء غياب هذا التخطيط الفلسفي الموحد . اكثر المفـاهيم لم تتبلور بعد . الامة ، القوميـة ، الدولة ، الحرية ، الدين ، الى ما هنالك من مقولات ، تستند اليها السياسة ، لم يعطَ لهـا فيلسوف بعد ، ليضربها على محك العقل البناء .

* * *

لا شك في ان التخطيطات العمرانية قـد بدأت ترى النور عندنا . وذلك ، بفضل العلم ، والخبراء الاجانب ، حتى . ففي كل بلد عربي نهضة عمرانية . ولكن التخطيط الفلسفي ، المعني هنا ، هو اكثر من تخطيطات اقتصادية ، قد تكون جزءاً منه . وهو لا يمكن استيراده من الخارج . لانه النظرة الموحدة التي يجب عليها ان تحوش كل عناصر وجودنا . وان تربطها ، بعد ذلك ، بكل عناصر الوجودات عنـد الاغيار ، لترتفع بنا

هكذا الى القمة ... الى الانسانية .

* * *

ان تاريخ الانسانية تاريخ حضارات . اي تاريخ طرق خاصة في تعليل الوجود . تلك هي الفلسفة . وقد لايكون ماضينا مشرفاً كثيراً ، من هـذا القبيل ، لأن الفلسفة لم تحظ بالتأييد عندنا دائماً . وقد لايكون ميلنا الى الفلسفة شديداً ، اليوم ، لاننا مـا زلنا في المرحلة الادبية فقط . شرقنا كله لم يستحر بعد بالتفكير الفلسفي الخلاق . من هنـا ضعف الحالة العامة ، التي نحن فيها ، والتي تبرز في اختلاف وجهات النظر ، بين السياسيين القادة عنـدنا . المفاهيم الاساسية لكل حركة سياسية لم تتضح بعـد في الاذهان . قلما عثرنا على سياسي ، في شرقنا ، يحدد الالفاظ التي هـي مفاتيح ، ويحـلل الامور الخطيرة ، ويربط النتائج بالمقدمات فلسفياً . السياسة ، في شرقنا ، استغلال ظروف . وتحريك شارع . واستنفار عاطفة هشة . وتضارب مصالح . على ان ذلـك لا يدعو الى اليأس . فالتطور فاعـل . لأن الذهنية العامة ، بفضـل الاطلاع والعدوى ، آخذة بالارتفاع . وقـد يأتي يوم ، وانـه لقريب جداً ، تتخطى فيه الادبَ المائـع ، نحو الفكر ذي العضلات القوية . نحو البناء الفلسفي .

* * *

انطلاقا من وجودنا الخاص

العبرة الثانية ، التي ينبغي لنا ان نقتاس بها ، من الوجودية الحديثة ، هـي مبـدأ احترام الوجود ، وتقديسه . يعني ان الانطلاق نحو الجوهر يجب ان يكون من الوجود . وكل

وجود هو خاص . لا عـام في العام ، وانما في الخـاص ، على غرار لا مرض في المرض ، وانما في المريض . تـلك هي الحقيقة الكبرى ، التي كشفت لنـا عنها الوجودية الحديثة ، بشكل لايقبل الريب . وهـذا هـو بالذات ما لم يحصل ، عندنا ، في الماضي ، لا اجتماعياً ولا سياسياً ايضاً وخصيصاً . لقـد حرم العالم العربي معايشة وجوداته الخاصة منذ اكثر من قرنين. عايش وجودات غيره ، فرضت عليه مـن الخارج ، فكان مقلداً لها لا اكثر . من هنـا عدم الشعور بالمسؤولية الملقاة عليه ، والتي وحدها تجعل منـه طليعياً بين شعوب الارض . لكأنه عايش وجودات غيره ، برواتب مـن غيره ، ليصطنـع بالتقليد مـا يفعله غيره صادقاً .

* * *

الوجودية تسوقنا الى ان نعايش وجوداتنا . هي لم توجه كلامها للانسـان الشخص فقط . لقد وجهته ، ايضاً ، للانسان المجتمع . وهـل يمكن ادراك الانسان في غير شخصه اللصيق اساساً بالمجتمع ؟ قلنا بان العبد المجتمعي هـو من اضخم العناوين في سجل الوجودية الحديثة . الانسان — في - المجتمـع ... هكذا حددت الكائن البشري . وهكذا جُرّت الى الاعتكاف على درس الظاهرات الاجتماعية . وكما انها قـالت بالانسان الشخص ، لا بالانسان العام ، كذلك قالت بالمجتمع القومي ، لا بالمجتمع الانساني . قالت بالمجتمع الانساني ذهاباً من المجتمع القومي . الانسانية حصيلة مجتمعات انسانية لا مجتمع انساني واحد .

* * *

سياسة العالم العربي لم تنتبه الى ذلـك قبلاً . لقـد كانت

ضعيفة تجاه المستعمر والمنتدب . فلم تنبت جذورهـا في ارضها الخاصة . كنا جوهريين الى آخر حدود الجوهرية المثالية . الامر الذي حدانا على احتقار الوجود ، وجودنا ، باعتباره تدنيساً للحقيقة المطلقة . وقد ساعد الغير على ترسيخ هـــذه الجوهرية المثاليـة في أذهاننا لأنهـا أضعفت تمسكنا بوجودنا الواقعي . فما عدنا نقدس لغتنا ، ولا ارضنا ، ولا تاريخنا ، ولا اقتصادنا ، بل انجرفنا في مسالك الذين نظرنا اليهم كأسياد لنا . والحق هو اننا لم نكن جوهريين ، اذ لا يقدر الانسان ، اصلاً ، على ان يتجوهر مثالياً . اي لا بد له ، جبراً ، من ان يكون وجودياً . ان الانطلاق هو من وجود خاص . تلـك هي حقيقته الصارخة . اذن كنا وجوديـــين ولكن على حساب غيرنا . فقد عايشنا وجود غيرنا . عايشنا تفكيره ، وعواطفه ، واحساسه ، وتقاليده التاريخية . عايشنا كل شيء عنده ، بفرض منه ، ولم نعايش شيئاً عندنا .

* * *

وهنا نتساءل عما اذا كنا عايشناه بالفعـــل كما يعايش هو ذاتَه ذاتَه . والجواب يأتي بالسلب . اذ الانسان عاجز عن ان يعايش ، بصدق وامانة كليين ، غير الوجود الذي هو امتداد لماضيه . لذا كانت معايشتنا لوجود سوانا نوعاً من الضعف . من الكبت . من التبطن . وهذا ما يسمى بالازدواجية في شخصية الانسان . انه الخبث ، والمداهنة ، والمراوغة ، وانكسار الذات على ذاتها . ومن جهة ابتعدنا عن وجودنا الخاص . فلا نحن الذي يفرضه علينا واقعنا الوجودي ، ولا نحن الذي فرضوه علينـا من واقعهم الوجودي . وهكذا ترجحنا بين عدمين .

* * *

التطورات السياسية ، لا سيما التحديات من الخـــارج ، أزالت الطوق الذي احكمه الاستعمار ، والانتداب ، حول اعناقنا . لقد انتفضنا من الغطيط . بدأنا نشعر بأن لنا وجوداً خاصاً . بأننا عاجزون كينونياً ، اي اصلا ، عن ان لا نكونه . اذ لكلٍ وجوده الخاص المحجور فيه . بدأنا نشعر بأن الحقيقة لم تعط للناس على انها ذات لون واحد باعتبـــار الوجود ، لذا قامت قيامتنا في العـالم العربي . نحن اليوم وجوديون . نطالب باحترام وجودنا . بتقديسه . باعطـائه عندنا حق الصدارة . باغنائه . وذلك ليتسنى لنا ان نكون في طليعة القافلة الانسانية . وهذا شيء طبيعي . الانسان كائن حر . والحرية حريات لا حرية واحدة . نظرة خاطفـة ، على الشعوب العربية ، في شرقنا ، لنتأكد من النزوع المتحرر كله ، نحو الوجود العربي . الأدلة القاطعة ، الساطعـة ، كثيرة الآن . جميعها تشير الى ان الغرب ، الذي استعمر وانتـــدب ، فقد سيطرته المباشرة علينا . الشعور نحو الارض الواحدة ، والاقتصاد الواحد ، والتاريخ الواحد ، والصفة الواحدة ، يتضح في أعماق أعماقنا ، شيئاً فشيئاً . يبقى ، وهنا السؤال الكبير الخطير ، ان نعرف ما اذا كان هذا الوعي السياسي ، عندنا ، لا يتعرض بدوره لأن يقع تحت سقفنا في خطيئة الجوهرية المثالية . هل هو امتداد لواقعنا الاجتماعي ؟

* * *

امتداداً لحالتنا الاجتماعية

لا شك ان لنا وجوداً خاصاً بنا يختلف عما هو عليه الغرب من حيث الواقع الاجتماعي . اذ لكل واحد منا أسانيده الوجودية التي تتباين مع اسانيد الطرف الثاني . كيلن لم يخطىء

البتة ، من هذا القبيل ، حين قال : الغرب غرب ، والشرق شرق ، لذا لـن يلتقيا . اجـل لـن يلتقيا على صعيد الوجود الخاص ، وان التقيا على صعيد الجوهر الانساني . لقـد كان كبلن وجودياً عندما قال ذلك .

* * *

اذن نحن لسنا الغرب ، ولا مـا هـو ليس نحن ، في العالم كله . ولكن هـل تنتهي هنـا تعاليم الوجودية الحديثة لنـا ؟ الانجد انفسنا حيال سؤال آخر تدفعنا اليه هـي عينهـا ؟ اجل ثمة سؤال هو التالي : هذا الوجود الذي لنا ، في الشرق العربي ، والذي بـه نحن مـا نحن ، بالنسبة للاغيار الذين لا يفكرون كما نفكر ، ولا يشعرون كما نشعر ، هل هو جوهر واحد بدوره ، بالنسبة لنـا ، ام انـه مجموعة وجودات ، تتمايز فيما بينها داخلا ، على صعيد الاجتماع ، والسياسة بالتـالي ؟ انكون جوهراً واحداً لموجود واحد ، في الارض ، والاقتصاد والتاريخ ، واللغة ، اي في الوجود الاجتماعي – السياسي ، ام اننا جوهر واحد لعدة وجودات ؟

* * *

سؤال على جانب كبير مـن الخطورة . ولا عجب ان نتطارح مثله . فالنظر والواقع يؤيدانه . نظراً لا مانع للجوهر الواحد مـن ان يتجسد في عدة وجودات ، كما لا مانـع ايضاً من ان يتجسد في وجود واحـد . واقعاً نرى انه لا خلاف ، بين الشعوب العربية ، مـن حيث الوقوف صفاً واحداً ، في وجه كل من يريد اغتصابه ... وان الخلاف كل الخلاف ، فيما بينها ، على احترام وجوداتها الاجتماعية – السياسية . لقـد

اعـــانتنا الوجودية ، الحديثة ، على ادراك وضعنا ، بالنسبة للخـارج ، فافهمتنـا اننـا وجود خـاص حيـال الغير . لذلك طـالبنـا بحقوقنا . ولذلك حصلنا عليها . وتعيننا الوجودية الحديثة ، هنا ايضا ، على ادراك وضعنا ، بالنسبة للداخل . فتفهمنا اننا جوهر واحد لعدة وجودات حرة في بيتها . وعليه فكل مشاكل الشرق العربي آتية من انه لا يعايش وجوداته وجوديا . لقد اصاب حين تبنى الوجودية حيال الغير فاستقل بوضعه ، ولكنه عاد فأخطأ حين تبنى الجوهرية حيال نفسه فجهل اوضاعه .

* * *

الشرق العربي لم يعايش وجوداته بصورة وجودية . تلك هي الخطيئة التي وقع فيها ... خطيئة الجوهرية المثالية . ويعود ذلك الى عام ادراكه لفلسفة الزمان في ابعاده الثلاثة . اذ الماضي والمستقبل ، بمعزل عن الحاضر ، يبينان جوهرين مثاليين . الحاضر وحده وجود واقعي . وقد اراد الشرق العربي ان يربط الحاضر بالمـاضي في سبيل المستقبل ، بعد ان تخلص من نير الاغيـار ، فقـال بالجـوهر الواحد في الوجود الواحـد . ثم نشط لتحقيق هـذا المشروع دون الانتباه الى ما يفرضه الحاضر ، من اجتماع وسياسة ، فكان التنافر بـين الاشقـاء . ومـن حسن الحظ ، هنـا ، ان التحرر من الغرب ، في الخارج ، لم ينته بعد . لذاما زلنانواجه هزات سياسية ، مـع الغرب . كلما هبت ارجعت لنـا الشعور باننا جوهر واحـد ، ازاءه ، فيكون التعاطف والتآخي والتناصر ، فيما يسمونه بجامعة الدول العربية . اجل مـن حسن

حطنا تلك الأزمــات السياسية التي لنــا مــع الغرب . وما ان تسوى هذه ، ونعتكف على داخلنا ، في الداخل ومن الداخل، حتى يقع الخلاف فيما بيننا . منا مــن يقول بان الماضي واحد ، والمستقبل واحد ، والحاضر بالتالي يجب ان يكون واحداً ، في الاجتماع والسياسة . نظرا لأن مثل هذا القول معقول . واقعاً انه يصطدم بالموانع . الخطأ هو ان الانطلاق حدث من الماضي . وقد انبغى له ان يكون من الحاضر . والحاضر حواضر . اذ لكل منا اسانيده الاجتماعية التي تجعله غير سواه في المجموعة العربية .

* * *

اذا كان لا بد من تجسيد جوهرنا الواحد ، في وجود سياسي واحد ، فمن الواجب على هذا الوجود ان يأتي امتدادا ،رصينا، لحالة اجتماعية واحدة هي وليدة التطور . الذهــاب ينبغي له ان يكون من الحاضر . هنــاك التهيئة الاجتماعية ، الــتي لاتتم بين ليلة وضحاهــا ، وقد لا تتم اطلاقا . فاذا كان لهــا ان تتم فبرعاية ودراية ... اي بالمحبة الفلسفية ؛ لا بالقوة العسكرية ، او الخدعة السياسية . نحن ، فيما بيننا ، اشقاء . فكل اصطدام في عائلتنا الواحدة ، يفيد العدو . كيف ؟ يرهق اعصابنا ، يبذر معداتنا ، يقتل شبابنا ، يضيــع وقتنا ، ويؤخر سيرنا . ان الوجودية الحديثة تلفت نظرنا الى تلــك الحقيقة . لنــا اوضاع اجتماعية يجب علينا ان نحترمها مهما كانت المسالك التي افضت بنا اليها . ان كل محاولة سياسية يترتب عليها ان تأخذ بعين الاعتبار تلك الحقيقة . فلنكن اذن وجوديــين في تفهم اوضاعنا . على هذا الاساس ، فقط ، ندرك الغاية القصوى

* * *

اجل ، لقد ارتكبنا ، في الماضي ، خطيئة الجوهرية المثالية، التي تتذهنها الواهمة البشرية ، كما تريد . فلا المادة احترمناها بمعناها الروحي ، ولا المجتمع قدسناه بمعناه القومي . وهكذا ضللنا ، فقلنا بالاعتزال والتنسك ، واستسلمنا لكل قوة خارجية. اعتقدنا اننا على حق ، في حين انه لا روح بدون مادة ، ولا انسانية بدون قومية ، في نطاق الوجود ، الذي يمكن له ان يكون واحدا لجوهر واحد ، او عدة وجودات لجوهر واحد . لنفقه اليوم انه ، اذا كان لنا ان ننتصر ، يجب علينا ان نتبنى فلسفة الغرب ، فنخدم المادة والمجتمع ... اي نكون وجوديين حقا .

* * *

ايماننا بالله

نصل الى الالحاد . لاشك في أننا لا نريده . لاسباب عديدة . منها انه لا يعكس لنا اراء كل الوجوديين . قلنا ، ويقول سارتر ذاته ، بان هناك وجوديين مؤمنين ، امثال مارسيل . ومنها ، وهذا اعتقاد لنا ، ان سارتر عينه سيرجع اخيراً . وقد بدأت علامات الرجوع ترتسم . ومنها ، وهو الاهم في نظرنا ، ان الالحاد يتنافى ، تماماً ، مع ذهنيتنا . من هنا خرجت الاديان الكبرى . اذن نحن والوجودية ، الملحدة ، على طرفي نقيض .

* * *

الذي يستعرض الازمات السياسية ، في العالم الحاضر ، يرى بدون ريب ان المشكلة الاولى ، والاخيرة ، هي مشكلة دينية . لا نهون ، بدورنا ، ما في تلك الازمات ، السياسية ،

من الحاح اقتصادي وضرورات اجتماعية . اجل ، هناك تفاوتات في توزيع الثروات ، نتج عنها غياب العدالة الاجتماعية بين الناس . هذه السلبيات يجب القضاء عليها . اذ ينبغي لكل فرد ان يحصل على ما يساويه بغيره من جهة الاقتصاد والاجتماع .

* * *

يبقى ان مشاكل الاقتصاد والاجتماع ، كعلم ، يمكن معالجتها وحلها ، كعلم ، اذ لكل علم مخارج عقلانية . من اين اذن توتر الاعصاب بين الفرقاء ؟ لو كانت المسألة مسألة علم لهان الامر كثيراً . ما على العلماء إلا ان يجلسوا الى طاولة مستديرة ليبحثوا بهدوء . ما يسر حله الآن حل . وما عسر حله الآن ارجىء . وتظل العلاقات بدون اضطراب . لكن المسألة تتجاوز الاقتصاد والاجتماع كعلم . هناك عقيدة لدى كل فريق . وكل عقيدة دين . ذلك لأنها تفرض من المبادىء ما لا يمكن قبوله او رفضه إلا بالارادة . والارادة عصبية المزاج .

واكثر العقائد عقائدية هي تلك التي تتناول الانسان كانسان . اي تلك التي تعالجه ، رمة ، في كل نواحيه الكيانية ، على ضوء ابعاده الزمنية الثلاثة . يعني ما كان عليه ، وما هو عليه ، وسيكون عليه ، مدى الحياة وبعدها . أهو خالق نفسه ام ثمة خالق ؟ وما هو الخالق اذا كان ثمة خالق ؟ أهو الاقتصاد ام هو الله ؟ وكيف يخلق الانسان ذاته ، اذا لم يكن ثمة خالق ؟ والموت ، ايجاب عن شوكته ، اذا رفضنا الدين ؟

* * *

اذا كانت مشكلة العالم ، الحاضر ، من باب الاقتصاد الاجتماعي ، فقط ، لماذا ينادون بالالحاد ، ويصرون ويناضلون في سبيله؟ ليتركوا الامور الاقتصادية والاجتماعية تأخذ مجراها الطبيعي . لا بد من حلها يوماً . لكن الانسانية فشلت علماً . لم تسعدها الاكتشافات العلمية اكثر مما كانت عليه . وخيبتها ، من جهة الدين ، ناتجة عن سوء فهمها للدين ، فعدم تطبيق تعاليمه ، كما ينبغي ذلك . ولا نعتقد ، نحن ، ان ثمة ما يقدر على انقاذها إلا الدين ، بمفهومه الأحق ، مع القول ان للمادة الاقتصادية شأناً ، كبيراً ، في الموضوع .

* * *

ميزة شرقنا العربي انه حافظ على ايمانه بالله . حافظ على هذا التراث ، الذي اصبح جزءاً لصيقاً بكيانه، مما يجعل نصيب الوجودية الملحدة ، كالشيوعية الملحدة ، غير وارد في حياتنا الاجتماعية . أجل اننا نرفضها على هذا الاساس . الا ان ذلك لا يعني التناقض بين الدين والفلسفة . فقد قلنا بأن الفلسفة واجبة الوجود . تلك هي العبرة الاولى التي نقتاس بها من الوجودية الحديثة . وقلنا بأن للوجود مركز الصدارة في حياة الانسان . اذن من وجودنا يجب ان ننطلق نحو الجوهر . تلك هي العبرة الثانية . وبفضلها رأينا ما للواقع الاجتماعي والمادي من خطورة في كيان الانسان . تلك هي العبرة الثالثة . اذن الفلسفة ضرورية للدين .

* * *

لا نبالغ اذا قلنا انه من حسن طالع الانسانية ان يكون

شرقنا محافظاً على شعلة الايمان . انـه حصن حصين له . الغرب نخره سوس الالحاد . لقـد اختبر العلم فخـاب امـله . اختبر اللايكية فخاب امله . اختبر الاباحية ، في كل شيء ، فخـاب امله . واخيراً ضرب في الالحاد . فهل تحسن حـاله من حيث ادراكه السعادة التي يرغب فيها ؟ ان كل حركة الحـادية تتحطم على حدودنا . فلا الوجودية السارترية ، ولا الشيوعية الماركسية ، بقادرة على ان تجد ، في ربوعنا موطىء قدم . وقـد يكون من الفائدة القصوى ان يتلاقى عندنا الدين والفلسفة على صعيـد واحد . اذ لا ننكر ما في الفلسفة من رجولة تفكير تكون رقيباً على القلب المعرض دائماً الى الانزلاق في ميوعة الخرافـة الفلسفية لجام للعاطفة المسترخية. الا ان دورها يجب الا يتخطى حقل المشاعر ، وتمكينها ، كي لا تفقـد الافئدة الوعي الصارم الحق . الفلسفة منهـج تفكير لا اكثر . الدين ارسـخ وجوداً : واثبت جذوراً . وانيع ثماراً . وابعد حساباً . واضمن خلوداً . والصق بالنفس البشرية . جلُّ ما يحتـاج اليه الا يترهـل في شبقه الى فوق . هنـا تستجيب الفلسفة الى الطلب . اذ تمسك المقود بيدين من فولاذ ، وتمنح معطيات الدين منـاعة المنطق . هذا ما يجب ان يحصل تحت سمائنا ... زواج عـادل بين شمس العقل وقمر الفؤاد .

كمال الحاج

ما يوجه الى الوجوديين من انتقادات

أريد هنا أن ادافع عن المذهب الوجودي ، محاولا الاجابة على كل ما يوجه اليه من انواع الاتهام وشتى الانتقاد .

ان اول اتهام وجه الى الوجودية هي انها تدعو الناس الى الخمول وتدفعهم الى اليأس ، فتجرهم بذلك الى عدم السعي والى الكسل ، فكون جميع الحلول الممكنة لاعمالنا في هذه الحياة حلولا صعبة المنال ان لم تكن مستحيلة يدفع بنا الى الانغماس في شعور من اليأس والقلق الهادىء والجمود ... فامكانية العمل تكاد تصبح معدومة وامكانية الانتاج تصبح بالتالي في مهب رياح الفردية والاحلام والخيالات التي تصورها لنا فلسفتنا الجديدة في الحياة ، هذه الفلسفة التي لا تلبث ان تصبح فلسفة تخيلية وفلسفة بورجوازية تمت الى الترف بصلات كثيرة ...

هذا التأثير الذي تتركه فينا الوجودية وتدفعنا به الى فردية حالمة لا تعي من مشاكل المجتمع والكون الا ما اتصل اتصالا وثيقاً بمستلزمات هذه الفردية او ما كان اداة طيبة في يدها تسيرها كما تريد لها اهواؤها

وغرائزها ... هذا التأثير كان السبب الذي من اجله قام الشيوعيون واصحاب المذاهب الماركسية يكيلون للوجودية اشنع التهم ...

انتقادات الماركسيين

فقد اتهمنا الماركسيون اننا لم نهتم الا بوصف مظاهر حقيرة من مظاهر الحياة ، وبأننا لم نصور الا الجبان ، والفاسق والضعيف والمائع وصاحب الخلق المنحل ، واننا نسينا الى جانب ذلك مختلف مظاهر الحياة الآملة من المستقبل . بأننا صورنا الناحية المظلمة من الحياة وعمينا عن اختها المشرقة . فترى الانسة مرسيه Mlle. Merceir – وهي ناقدة كاثوليكية ، اننا نسينا مثلاً « ابتسامة الطفل » . والماركسيون والكاثوليكيون يعيبون علينا تقصيرنا امام واجب التعاون الانساني ، واعتبارنا ان الانسان فرد منعزل وذلك متأتٍ كما يقول الماركسيون من اننا نعتبر في الاساس ان الانسان ذاتية محضة ، (subjectivité pure) واننا نبدأ من (انا افكر فأنا موجود) التي قالها ديكارت . اذ باعتبار ذلك يصبح الانسان لا يعي وجوده الا في فرديته مما يجعلنا بالتالي عاجزين عن الانفلات من ذلك القيد والتطلع الى تعاون مع الاخرين .

انتقادات الكاثوليكيين

ومن الوجهة المسيحية ، فنحن بنظر المؤمنين ننكر حقيقة وجِدِّيَّة المواقف الانسانية ، ونحن الى

ذلك بانكارنا لاوامر الله وبانكارنا للقيم الازلية لا نبقي على شيء له اهميته وله اعتباره في الحياة ، ويصبح الفرد منا قادراً على التصرف كما يشاء وعاجزاً بالوقت نفسه عن الحكم على تصرفات غيره .

ما هي الوجودية ؟

هذه هي الانتقادات التي توجه للوجودية ، هي التي اريد ان اجيب عليها اليوم ، ولهذا سميت هذا العرض الموجز : (الوجودية نزعة انسانية) .

قد يعجب الكثيرون لذكرنا كلمة (انسانية) هنا ، ولكننا سنحاول ان نرى مفهوم هذه الكلمة بالنسبة لحركتنا . وجل ما نستطيع ان نقوله في بدء كلامنا اننا نفهم بكلمة الوجودية : (نظرية تجعل الحياة الانسانية حياة ممكنة)

... « une doctrine qu rend la vie humaine possible »

وتعتبر ان كل حقيقة لا تكون الا بفعل عاملين : عامل البيئة وعامل الذاتية الانسانية .

التشاؤم والوجودية

نحن نعلم ان اهم اتهام واشد نقد يوجهان الينا هو اننا صرفنا اهتمامنا الى الناحية الشريرة من الحياة وتغاضينا عن الحياة الخيّرة . واننا انصرفنا الى الحياة المظلمة التي لا يدخلها شعاع التفاؤل ولا تعبرها انسام الامل ...

روي لي مؤخراً ان سيدة تعثر لسانها تحت عامل

الغضب ، فافلتت كلمة شعبية مقذعة فما كان منها الا أن سارعت معتذرة تقول : (اعتقد انني في طريق الوجودية) ...

لذلك يخلطون عادة بين الوجودية من جهة وبين الشر والبشاعة من جهة اخرى ، وهكذا يعلنون اننا طبيعيون Naturalistes وعلى اعتبار اننا طبيعيون فاننا حقاً لفي دهشة من انفسنا اذ كيف توصلنا الى ان نخيف الجماهير والمجتمعات اكثر مما يخيفهم الطبيعيون انفسهم ، كيف توصلنا الى ان نوصم بما لم يوصم به اي طبيعي لا في عصرنا هذا ولا في غيره .

حكمة الشعوب

فمن يقرأ كتاباً لاميل زولا ككتاب (الارض) لا يثور كما يثور عند مطالعته لرواية وجودية ومن يعتمد على « حكمة الشعوب Sagesse des nations » – وهي تشاؤمية للغاية – يظننا اكثر منها يأساً واعمق منها تشاؤماً . انني استغرب مثل هذا التصرف ومثل هذه التهمة . واعجب لهؤلاء الناس الذين يعتقدون انه لا يجب ان نقاوم السلطات النافذة ، ولا يجب ان نثور على القوة ولا يجب ان نسعى للوصول لما يتعدى استطاعتنا ويسمو عن امكانياتنا ، ويعتقدون ان كل عمل لا يتلاءم مع التقاليد انما هو من ضرب الشعر والخيال والابتعاد عن الواقعية وعن الروح العلمية ، ويعتقدون ان كل محاولة لا تعتمد على التجربة الاكيدة انما هي تجربة

مكتوب لها الفشل المحتم ، ويعتقدون ان الانسان أنما يسير الى الخلف والى الانحلال وانه يجب ان نعمد الى قوى كثيرة لنستطيع ان نمنع فيه هذا الميل والا وقع في فوضى شاملة .

هؤلاء الذين يدينون بجميع هـذه الاراء ، والذين يعتبرون بعض الاعمال المقززة والاغاني الخليعة نتاجاً انسانياً ، هؤلاء انفسهم هم الذين يتهمون الوجودية بأنها فلسفة مظلمة لدرجة اظن معها انهم انما يتأسفون على تفاؤلية الوجودية لا على تشاؤميتها .

أليس حقيقة أن ما يخيف في الفلسفة الوجودية التي سأسعى لعرضها وشرحها فيما يلي ، كونها تترك للانسان حرية الاختيار ؟

ولكي نتأكد من ذلك فلنجرب استعراض هـذه المشكلة من الوجهة الفلسفية .

ما هي الوجودية

فمن يصح اذن أن يطلق عليه لفظ : وجودي ؟

الموضة الوجودية

اكثر الاشخاص الذين يستعملون كلمة وجودية يجدون صعوبة جمة اذا طلب اليهم ان يشرحوها . اذ الواقع ان الوجودية اصبحت اليوم « موضة » العصر . واصبحنا نسمع ان فلاناً الموسيقي وجودي النزعة ، وان فلاناً الرسام وجودي ايضاً . في الواقع ان مفهوم كلمة«وجودية» اتسع اتساعاً عظيماً اصبحت الكلمة لا تعني معه شيئاً على الاطلاق .

ولكن يظهر أنه بتأثير النظريات والحركات المختلفة التي ظهرت حديثاً كالسرياليزم وما شابهها ، اصبح الناس وبهم ظمأ الى التجديد الثائر على التقليد ، يتقبلون كل فلسفة من هذا النوع .

ولكن الفلسفة الوجودية لا تفيدهم بشيء ولا تعطيهم ما يطمحون الى امتلاكه من هذا القبيل .

وفي الحقيقة : ان النظرية الوجودية هي أقل النظريات اتصالا بالفضيحة وتقرباً الى الشر ، وهي اكثر النظريات جدّية وصرامة . وهي لا تهم الا

الفلاسفة وأهل الاختصاص .

مدرسة الوجودية

وتعريف الفلسفة الوجودية تعريف بسيط للغاية . ولكن ما يعقد الامور هو وجود مدرستين وجوديتين تختلف الواحدة منهما عن الاخرى ، وبالتالي وجود نوعين من الوجوديين :

اولهم الوجوديون المسيحيون وفيهم الفيلسوف الالماني المعاصر كارل جاسبرز Karl Jaspers والفيلسوف الفرنسي غابرييل مارسيل Gabriel Marcel والاثنان كاثوليكيان .

والفئة الثانية هي فئة الوجوديين الملحدين وبينهم يجب ان يوضع هايدجر Heidegger والوجوديون الفرنسيون وأنا أيضاً ...

وهاتان الفئتان من الوجوديين تلتقيان على صعيد واحد وتتفقان على « ان الوجود يسبق الجوهر »
« L'existence précède l'essence » ...

او بعبارة اخرى على انه يجب ان نبدأ من « الذاتية » وسنحاول أن نرى ماذا نفهم بما تقدم :

الوجود يسبق الجوهر

عندما نعتبر شكلا اتم صنعه ، كالكتاب أو كقاطعة الاوراق مثلاً ، نجد ان مثل هذه الاشياء لم يقم بصنعها الفنان الا اعتماداً على فكرة تخيلها واخرج هذه الاشكال على صورتها التي في ذهنه

مستعيناً بالطرق العملية التي تؤمن الانتـاج الجيد وتكون بمثابة تتمة للفكرة الاصلية أو بمثابـة « الوصفة » الطبية أو اوامر وتعـاليم الطبيب التي لا نملك ان نعدل فيها ادنى تعديل ....

اذن فقاطعة الاوراق هي شكل يصنع بطريقة خاصة محدودة المعالم وهي ايضاً شكل صنع لفائدة واستعمال معينين ؛ ولا يمكن ان نتصور رجلاً يصنـع قاطعة أوراق دون ان يكون على معرفة كاملة بالفائدة التي سيجنيها من وراء ذلك أو دون ان يكون على بينة من طرق استعمال هذه القاطعة ...

فيصح القول اذن أنه فـيما يختص بهـذه القاطعة فان الجوهر – اي مجمل الطرق والتعليمات والصفات التي تحدد وتشكل انتاج قاطعة الاوراق – يسبق وجود القاطعة . فالفكرة في رأس الفنان قبـل ان تصبح القاطعة وجوداً بين يديه . وجوهر الكتاب سابق لوجوده كما هو في شكل كتاب ...

وهكذا تتضـح في اذهاننـا النظرة التقنية (technique) للكون ، ويصبـح باستطاعتنا أن نعتبر ان الانتاج يسبق الوجود ...

الله والانسان عند فلاسفة القرن السابع عشر

وعندما نتصور الهاً خلاقاً ، فاننا لا نتصوره الا على صورة فنان عظيم أو صانع علوي ... ومهما تكن النظرية التي نتبناها ، سواء أكانت مشابهة لنظرية

ديكارت أو لنظرية لايبنتز « Leibnitz » ، فانما نعتبر ان الارادة سابقة دوماً للفعل أو الفكر ، أو انها على الاقل تلازم الفكر . وان الله بالتالي لا يخلق الا عالماً بما يخلق اذ لا يصح ان نعتبر ان الله يجهل ما يقوم به . وهكذا تصبح « فكرة الرجل » المجردة والموجودة في خيال الخلاّق فكرة مطابقة تمام المطابقة لفكرة قاطعة الاوراق الملتصقة بفكر وخيال الصانع الذي يقوم بصنعها وخلقها واخراجها لعالم الوجود ؛ والله يخلق الانسان تبعاً لاصول وتبعاً لشكل خاص كما يخرج الصانع قاطعة الاوراق تبعاً لشكل معين وتعريف خاص . وهكذا يحقق الانسان جزءاً من فكرة يتخيلها الخلاّق الذي هو : الله .

في القرن الثامن عشر

وفي القرن الثامن عشر قام الفلاسفة الملحدون فانكروا فكرة الله ، ولكنهم لم يتوصلوا الى هذه الدرجة مع فكرة « ان الجوهر يسبق الوجود ».

وهذه الفكرة – فكرة : كون الجوهر سابقاً للوجود – نجدها تقريباً عند جميع الفلاسفة : عند ديدرو Diderot ، عند فولتير Voltaire وحتى عند كانت Kant .

فهؤلاء يعتقدون ان للانسان طبيعة انسانية ، وان هذه الطبيعة الانسانية موجودة عند جميع البشر ، مما يجعل من كل فرد مثلاً خاصاً لفكرة عامة ، وهذه

الفكرة هي فكرة « الانسان » .

وعند « كانت » يستنتج من هـذه النظرية ذات الصفة الشمولية ان الانسان المتوحش ، والانسان الطبيعي والانسان المتمدن يخضعون لتعريف واحد لانهم لا يفترقون في صفاتهم الجوهرية .

وهنا ايضاً فان جوهر الانسان يسبق هذا الوجود التاريخي الذي نصادفه في الطبيعة .

الوجودية الملحدة

أما الوجودية الملحدة التي امثلهـا بنفسي ، فهي اكثر انسجاماً واكثر منطقية . فهي تعتقد انـه اذا جاز أن نعتقد ان الله ليس موجوداً فانـه من المحتم أن نعتقد على الاقل بوجود كائن سبق الوجود عنـده الجوهر ، اي ان نعتقـد بوجود كائن موجود قبـل ان يعرف في ضمن أية فكرة مجردة أو في وهم أي خالق ، وهكذا الكائن هو الانسان ، او كما يريـد ان يعرفـه هيديجر Hidegger (الواقع الانساني) .

فما معنى : كون الوجود يسبـق الجوهر أو الفكرة المجردة ؟

ان ذلـك يعني ان الانسان يوجد قبل كل شيء ، يصادف ويظهر في الطبيعة والكون ، ومن ثم يحدّد ويعرّف ...

والانسان ، كما تتصوره الوجودية ، ليس له في البدء أي وجود حتى يمكن تعريفه وتحديده ، وان

هذا التعريف وهذا التحديد لا يصح وجودهما الا بعد ان يكون الانسان قد وجد وعلى الشكل الذي يوجد نفسه عليه ...

وهكذا يصح الاعتقاد انـه لا توجد « طبيعـة انسانية » لانه لا يوجد اله خـالق ليتصورها في ذهنـه ومن ثم يعمد الى خلق الانسان بنـاء على تصوره لتلك الطبيعة .

الانسان ليس فقط موجوداً كما يتصور وجود نفسه بل كما يريد وجود نفسه وكما يتصور وجود نفسه بعـد ان تكون هذه النفس قـد وجدت . والانسان هو خالق لنفسه لانه وحده متصور لها .

ذلك هو المبدأ الاساسي للوجودية . وهذا مـا نسميه ايضاً الذاتية « La subjectivité » وما يؤخـذ علينا لاجل تلك التسمية ...

وان ما نريد ان نقوله مـن وراء هـذا الاعتقاد ان للانسان كرامة اكثر مما للحجر او الطاولة من كرامة . فنحن نريد ان نقول ان الانسان موجود قبـل كل شيء وهذا يعني أنه قوة تتطلـع للمستقبل وهي تعني تماماً انها تندفع نحو المستقبل .

المشروع

الانسان ليس قبل كل شيء الا مشروعـاً . وهو مشروع يعيش بذاته ولذاته . وهذا المشروع سابق في وجوده لكل ما عـداه . ولا يوجـد شيء تستطيع السماء ان تتصوره أو تتخيله . فالانسان هو ما شرع

في ان يكون ، لا ما اراد ان يكون . لان المعنى العادي للارادة هو كل ما كان قراراً واعياً وهو بذلك لاحق بوجوده لقرار سبقه . فانا استطيع ان اريد الانتساب لاحد الاحزاب ، او اريد تأليف كتاب او اريد الزواج ، وكل ذلك ليس الا مظهراً من مظاهر اختيار اصلي « Choix original » اكثر بساطة واكثر طبيعة مما نسميه : ارادة

الانسان مسؤول

فاذا كان الوجود يسبق حقيقة الجوهر فالانسان اذن مسؤول عما هو كائن . فأول ما تسعى اليه الوجودية هي أن تضع الانسان بوجه حقيقته ، وان تحمله بالتالي المسؤولية الكاملة لوجوده .

وعندما نقول ان الانسان مسؤول عن نفسه لا نعني ان الانسان مسؤول عن وجوده الفردي فحسب بل هو بالحقيقة مسؤول عن جميع الناس وكل البشر . ان لكلمة « ذاتية » معنيين وان اعداءنا يسيئون استعمال هذين المعنيين عن قصد ، ان كلمة « ذاتية » تعني من جهه اولى : انتقاء الفرد بنفسه ومن جهة اخرى تعني : استحالة تامة تواجه الانسان اذا اراد ان يتعدى ذاتيته . وان المعنى الاخير هو المعنى العميق الذي تعتمده الوجودية ...

الاختيار

عندما نقول ان الانسان يختار نفسه بنفسه نعني بالتالي ان الانسان الذي يختار نفسه انما يختار تبعاً

لذلك جميع البشر .

وفي الواقع ان كل عمل نقوم به يخلق الرجل الذي نريده ويخلق بنفس الوقت الرجل الذي نرغب في ان نكونه . فاذا اختار الانسان ان يكون شيئاً معيناً فهو بذلك يؤكد قيمة اختياره ، لانه لا نستطيع ابداً ان نختار الشر . ان ما نختاره لا يكون الا الخير ، ولا خير في نظرنا اذا لم يكن خيراً للجميع

الانسان يختار نفسه باختياره لجميع الناس

فاذا كان الوجود يسبق الجوهر ، واذا كنا نريد ان نوجد بنفس الوقت الذي نعدل فيه من شكلنا وصورة وجودنا ، فان هذه الصورة الخاصة بنا تصبح منطبقة على الجميع ومنطبقة على عصرنا بكليته . فالتعديل الذاتي ليس الا تأثراً بالغير وتقرباً منهم .

وهكذا تصبح مسؤوليتنا اكبر بكثير مما نستطيع ان نفترضه لانها في الواقع تجر الانسان لان يتحمل الانسانية باجمعها .

فاذا كنت عاملا ، واخترت ان انتسب لاحدى النقابات المسيحية مبتعداً بذلك عن الشيوعية ، واذا كنت بهذا الاختيار اريد الاقرار بان الخضوع هو خير ما يناسب الانسان من الحلول ، وان مملكة الانسان الحقيقية ليست على هذه الارض وسعادته

ليست في هذه الحياة ، فانني بذلك لا أكون قـــد انضويت بفرديتي : انني اريد ان اخضع مع الجميع . وتصرفي هذا قد جعل الانسانية كلهـــا تنضوي معي وتؤمن بما أؤمن به ...

تصرف انساني شامل

واذا اردت ان اتزوج ، وهذا عمل اكثر فردية ، وكان هذا الزواج لا يتعلق الا بحالتي الخاصة وظروفي الشخصية وعاطفتي أنا ورغبتي الفردية ، فـــان ذلك لا يجعلني انضوي وحـــدي بـــل الحقيقة ان الانسانية جمعاء سارت معي الى وجهة نظري لجهـــة عدم تعدد الزوجات ...

وهكذا فانني مسؤول امام نفسي وامام الجميع . وانا لا اقوم الا بخلق صورة للانسان الذي اختاره .

فاذا اخترت نفسي فانما انا اختار « الانسان » .

وهذا ما سيساعدنا في شرح تلك التعابير الضخمة الطنانة مثـــل : القلق أو الكـــآبة Angoisse ، والاهمال Délaissement واليأس désespoir .

الكآبة

وكما سترون فان ذلك في غاية السهولة . فـــماذا نفهم بكلمة كآبة . فالوجودي يؤمن ايماناً قاطعاً بأن الانسان هو كآبة عميقة . وهـــذا يعني ان الانسان الذي ينضوي يتأكد انه لا يختار نفسه فحسب بل هو يختار الانسانية جمعاء ، وهو يقع فريسة لشعور

عميق بالمسؤولية المترتبة عليه . ومن المؤكد ان كثيراً من الناس لا يهتمون لمثل هـذه المسؤولية ولكننا نعتقد انهم انما يسترون كآبتهم واهتمامهم ، او انهم بمعنى آخر يتهربون منها .

ومن المؤكد ان اكثر الناس عندما يتصرفون لا يعتقدون انهم يشركون غيرهم بتصرفهم الفردي ، ولكن عندما نقول لهم : واذا تبعكم جميع الناس في ذلك وقلدوكم ، عندها يهزون اكتافهم ويجيبون : ولكن جميع الناس لا يتبعوننا ولا يقلدوننا !

وفي الحقيقة يجب ان نتساءل : ماذا يحدث لو ان جميع الناس يفعلون هكذا ؟

واننا لا نتخلص من هذه الفكرة المحزنة الا بنوع من الايمان الفاسد أي بتصديق ما نعلم انه بعيد عن الحقيقة « Mauvaise foi » .

الكآبة والايمان الفاسد

ان الذي يكذب معتذراً عن ذلك بقوله ان جميع الناس يكذبون ، انما هو شخص ذو ضمير مثقل ، لان فعل الكذب يحتم بحد ذاته قيمة عامة valeur universelle للكذب . وحتى اذا تستر واختبأ فان الكآبة تظهر عنده .

وان هذه الكآبة هي التي دعاها كير كجارد Kierkegaard « كآبة ابراهيم » وكلنا يعرف القصة : فقد جاء ملاك ابراهيم وامره ان يضحي بابنه اسماعيل . فالقضية لا مشكلة فيها اذا كان

الملاك حقاً ملاكا واذا كان ابراهيم حقاً ابراهيما . فكل منا يستطيع ان يتساءل اذا كان الملاك حقاً ملاكا واذا كان هو نفسه حقاً ابراهيما ؟ فما هو الذي يؤكد او ينفي ذلك ؟

كير كيجارد والكآبة

كانت احدى المصابات بمرض عصبي تتصور اشياء كثيرة وتختلق في خيالها اشكالا مختلفة ، وكانت اذا طلب الطبيب مخاطبتها بالهاتف وسألها : من المتكلم ؟ اجابت : « انه الله ! » فما الذي كان يجعلها تتصور انها الله ؟ وما الذي يجعلني اتأكد اذا جاءني الملاك من كونه ملاكا ؟ واذا سمعت اصواتاً فما الذي يدلني اذا كانت هذه الاصوات آتية من الجنة ام من النار او انها من عقلي الباطن او من تأثير مرض نفساني او عصبي ؟. ومن الذي يؤكد لي انني مضطر او مكلف بأن افرض نظريتي واختياري الخاصين على لانسانية جمعاء ؟

ابراهيم والملاك

انني لن اجد اي دليل ولن اجد اية اشارة تهديني او تقنعني . فاذا سمعت صوتاً يناديني ويتوجه إلي فانني دوماً انا بنفسي الذي اقوم بتقرير ان هذا الصوت صوت ملاك . واذا اعتبرت ان عملاً معيناً هو عمل خيّر وفاضل فان ذلك لا يكون الا نتيجة لاختياري الشخصي .. فانا هو الذي قام بالاختيار وانا هو الذي قرر . ولا يوجد شيء من

جهة اخرى يؤكد لي انني انا ابراهيم الموجه اليه الخطاب ، ولكنني رغم ذلك احس انه مفروض علي ان اقوم باعمال معينة . وان الواقع ان ما يجري مع كل منا يجعلنا نتصور ان الانسانية جمعاء تراقبنا وتحصي علينا حركاتنا عند كل عمل نقوم به . وكل منا يتساءل : هل انا حقيقة ذلك الشخص الذي يحق له أن يتصرف بشكل تتبعه فيه الانسانية وتقلده !!

وكل من لا يحس بذلك ويعيش كذلك فانما هو يستر كآبته وشقاءه وألمه .

الكآبة لا تؤدي الى ترك العمل

ان الكآبة التي نعنيها لا تؤدي بأي شكل من الاشكال الى الدعة والكسل والابتعاد عن العمل . انما الكآبة التي نحن بصددها كآبة بسيطة يعرفها جميع الذين تحملوا ويتحملون المسؤوليات .

فعندما يتحمل قائد عسكري مسؤولية هجوم ، ويرسل جنوده الى مواجهة الموت ، فهذا لا يقوم بالاختيار وحده . ومن المؤكد انه يأتمر بأوامر عليا ولكن هذه الاوامر ليست دقيقة وهي تتسع لمختلف التأويلات والتعديلات ، وهذه التعديلات تعتبر من اولى واجباته ، وهي تقرر مصير عشرة او خمسة عشر رجلا من رجال القائد . وهو لا يستطيع إذا قرر شيئاً ما إلا ان يحس في اعماقه كآبة ما . وجميع

الرؤساء والمسؤولين يعرفون جيداً هذا الشعور .
وذلك لا يمنعهم من العمل بل على العكس فانه من مستلزمات عملهم . لان مجرد احساسهم بالكآبة يعني انهم قد تصوروا امكانيات مختلفة واستعرضوا حلولا عديدة وان الحل الذي يقترحونه على انفسهم ويطبقونه لا قيمة له الا لانهم اختاروه لانه يجد ذاته لا تتعدى قيمته قيمة غيره من الامكانيات .

الكآبة والمسؤولية

فهذا النوع من الكآبة التي تصوره الوجودية ليس ستار يقوم بين الانسان وسعيه وقواه الانتاجية ، بل هو على العكس جزء من العمل وشطر من المسعى .

الاخلاق العلمانية

وعندما نتكلم عن الاهمال Délaissement ، وهذا التعبير محبب الى هيدجر Hidegger فاننا لا نعني الا ان الله ليس موجوداً ..

والوجودية تناقض نوعاً خاصاً من الاخلاق العلمانية «Morale Laïque» التي تنفي فكرة الله بسهولة زائدة .

فانه حوالي العام ١٨٨٠ حاول بعض الاساتذة الافرنسيين انشاء فلسفة علمانية او اخلاق علمانية .
وموجز آرائهم ما يلي : « ان فكرة الاله هي افتراض لا طائل تحته وهو الى ذلك يكلف غاليا . ولكنه يجب عوضاً عن ذلك التمسك ببعض القيم وذلك بغية المحافظة على الاخلاق والمجتمع والمدنية . وتلك القيم

ليست وليدة التجارب بل انها ذات صفة جبرية : —
فانه من الضروري ان يكون الانسان فاضلاً ومـــن

الضروري ان يفرض عليه بصورة لا تقبل الجدل ان لا يكذب وان لا يضرب زوجته وان ينجب اطفالا ... الخ ... وسنحاول ان نبين ان هـــذه القيم موجودة ومسجلة في عالم علوي وفكري رغم كون الله ليس له اي وجود ؛ وبمعنى آخر فان اي شيء لا يتغير رغم عدم وجود الاله .

الراديكالية

Le Radicalisme

وهذا برأيي هو الاتجاه الذي يعرف في فرنسا بالراديكالي . فبذلك نتعلق بنفس القيم العلمانية وهي قيم الفضيلة والتقدم والانسانية ، ونكون قد جعلنا من فكرة الخالق مجرد افتراض لا قيمة له ونتركه يندثر بسلام دون ان نكون بحاجة لمقاومته .

موقف الوجودية

اما الوجودية فانها تعتقد أن انكار وجود الاله عند هؤلاء من الصعوبة بمكان ، لانهم بذلك انما ينكرون وجود الخير المحض وينكرون وجود عالم القيم في السماء لانهم انكروا وجود الوعي اللامتناهي والكامل (اي الالهي) ليستطيع ان يتصور هذا العالم . واننا لا نجد في اي مكان نصاً على ان الخير موجود ، وانه لا يجب ان نكذب لاننا انما نعيش في عالم لا يوجد فيه قيم وانما يوجد فيه رجال فحسب .

دستويفسكي والوجودية

كتب دستويفسكي يقول «اذا لم يكن الله موجوداً فان كل شيء يصبح مسموحاً» . من هنـــا تنطلق الوجودية . فالانسان متروك لا يعتني به أحد لانه لا يجد لا في نفسه ولا في خارجهـا شيئـاً يتمسك بـه ويتعلق بأهدابه . فهـو لا يجـد قبـــل كل شيء اية مسامحة لاخطائه ، لان التفسير غير ممكن بالمقابلة مع اي كائن محـدد التكوين لان الوجود الفردي سابق للجوهر كما اسلفنا مما ينفي وجود الشكل الذي اعتبر نموذجاً محدد المعالم . وبمعنى آخر فان الجبرية ليست ذات موضوع بحث . فالانسان حر ، بل الانسان حرية .

الانسان حرية

فاذا كان الله غير موجود فاننا لا نجد امامنا قيما تسير تصرفاتنا وتجعلها شرعية . لذلك فاننا لا نجد امامنا او خلفنا أي نوع من التشجيع والموافقة أو اي عفو على هفوة ... فنحن وحدنا بدون عفو أو قبول تبرير . وهذا ما اسميه الجبرية في الحرية .

فالانسان مضطر ان يكون حراً وقد حكم علينا بالحرية « Nous sommes condamnés à être libres »

فالانسان محكوم لانه لم يخلق نفسه ، وهو من جهة اخرى حر لانه منذ الساعة التي القي فيها في هذا الكون وجد نفسه مسؤولا عن كل ما يفعله والوجودي لا يؤمن بقوة العاطفة . وهو لا يعتقد

ان العاطفة ليست سوى تيـــار يقود الانسان بصورة كيفية للقيام باعمال معينة مما يخلق بالتـالي مجـالا لتبرير نتائج تلك الاعمال الواقعة تحت تأثيرالعاطفة . ان الوجودي يعتبر ان الانسـان مسؤول عن عاطفته . والوجودي يعتبر ايضاً ان الانسان لن يجد عوناً في هذه الارض ، ولن يجد ما يهديه أو يحدد له معالم سيره لانه يؤمن بأن على الانسان ان يفسر هــذه المعالم التي هي اشبه بالطلاسم وان عليه ان يحلهـا بطريقته الخاصة . فهو يعتبر اذن ان الانسان مدعو في كل لحظة لاختراع الانسان ؛ وان في هذه الدعوة نوعاً من الحكم الصارم الذي لا خلاص منه .

الانسان يخترع الانسان

يقول بونج Ponge في مقال رائع : « الانسان هو مستقبل الانسان *L'*homme est l'avenir de l'homme وهذا صحيح للغاية الا اذا اعتقدنا بان هذا المستقبل مسجل في السماء وان الله يريده كما سيكون ، فاننا بذلك نقع في خطأ فاحش لاننا ننفي بذلك عـــن المستقبل صفة المضارع ولا يصح بعدهـا ان يعتبر كذلك . اما اذا اعتقدنا انه مهما كان الانسان الذي يظهر لاعيننا فان مستقبلاً بكراً ينتظره نكون بذلك قد اصبنا كبد الحقيقة .

الاهمالية Délaissement

وهكذا يصح ان نعتبر اننا مهملون وحتى اعطيكم مثلاً يسهل فهم « الاهمالية » سأذكر حالة احـــد

تلامذتي الذي جاءني زائراً في الظروف التالية :

كان ابوه في نزاع مع والدتـه ، وكان اخوه البكر قد قتل في ابان الهجوم الالماني على فرنسا عام ١٩٤٠ وكان هذا الشاب ذا عاطفة تميـل للبدائية ولكنها فاضلة على اي حال ، فرغب ان ينتقم لاخيه . اما امه فقد كانت تعيسة لنزاعها مع زوجها من جهـة ولمقتل ابنها البكر من جهة اخرى ، ولذلـك لم تكن تجد التعزية والسلوان الا بقرب ابنهـــا الثاني الراغب في الانتقام . فكان الشاب امام مفترق طرق : فامـا ان يسافر الى بريطانيا وينضم الى « القوات الفرنسية الحرة » تاركا خلفه والدته منخلعة القلب لغيـابه ، واما ان يبقى الى جانب والدته مواسياً لها ومعيناً على الحياة . وكان على يقين ان امه لا تعيش الا له ، وان فراقه او موته سيسببان لها ألماً عميقاً ويتركانهـا فريسة بين يدي اليأس . وكان على يقين ايضـاً ان كل عمل ايجابي يقوم به ذو تأثير مباشر على والدته فهو اما قد يساعدها على الحياة واما قد يخلق لهـــا مشاكل فوق مشاكلها . هذا مع العلم ان مجرد ذهابه الى الحرب لا يعني انه سيتعرض حتما للاخطار ، فقد يحدث انه اثناء ذهابه الى بريطانيا ان يمر باسبانيـــا ويبقى هناك في احد المعسكرات ، او ان يـذهب الى بريطانيا او الجزائر ويكلف القيام باعمال كتابية في احد المكاتب .

اذن وجد هـذا الشاب نفسه امـام شكلين مختلفين من التصرف : شكـل محـدود المعـالم لا يتعلـق

الا بالفرد ، وشكل آخر يتعلق بمجموعة ضخمة من الافراد ، يتعلق بمجتمع انساني او وطني ، وان مجرد تعلقه بهذا المجموع المتكاثر عدده يصبح شائكاً غير واضح فيخلق في نفسه التردد .

نوعان من الاخلاق

وفي نفس هذا الوقت كان هذا الشاب يتردد بين نوعين من الأخلاق ، فمن جهة أولى واجه نوعاً من الأخلاق الفردية التي توجب عليه الاخلاص لذاتيته ومصلحته ، ومن جهة ثانية واجه نظرة اوسع افقاً للاخلاق . وهذه النظرة اكثر اتساعاً من الأولى ولكنها أقل تأثيراً وفاعلية ...

وكان عليه ان يختار بين هاتين النظريتين ... فمن يستطيع ان يساعده على الاختيار ؟

أيساعده الإيمان المسيحي !

كلا ! فالدين المسيحي يفرض ان نكون محبين لبعضنا البعض ويفرض ان نساعد الجار ونضحي من أجل الغير ونختار في تصرفاتنا الطريق الشائكة فنسلكها .

ولكن ما هي الطريق الشائكة والاكثر صعوبة ؟ أهي ذلك الميل الغامض للمحاربة ضمن مجموع ومن أجل مجموع ؟ ام هي تلك الرغبة المحددة بمساعدة شخص عزيز ؟

فمن يستطيع ان يقرر ذلك بطريقة لا تقبل الجدل ؟

لا أحد !

ان أية نظرية اخلاقية لا تستطيع ان تحل ذلك المشكل . ان نظرية كانت « Kant » تنص على أنه لا يجب ان نعامل الغير على أساس انهم وسائل بل على أساس كونهم غايات بحد أنفسهم . وهذا ولا شك لا بأس به فان بقيت الى جانب والدتي اكون قد عاملتها كغاية لا كوسيلة ، ولكنني اكون بذلك قد تعرضت لمعاملة غيري من الناس كوسائل . وبالعكس اذا اخترت أن احارب الى جانب غيري أكون قد اتخذتهم هدفاً واتخذت والدتي وسيلة .

القيمة والعاطفة

ثم ان القيم غير واضحة ، وهي متسعة اتساعاً لا يتفق مع محدودية المثل الذي ندرسه ، فلا يبقى امامنا الا مجال الغرائز . وهذا ما حاول الشاب ان يعتمد عليه ويبني على مستلزماته اختياره وتصرفه . وعندما رأيته كان يقول : الواقع الذي يهمني هي العاطفة ، هي الميل ، وان علي ان اختار ذلك الميل الذي يدفعني باتجاه معين : فاذا أحسست انني احب أمي واتعلق بها لدرجة استطيع معها ان اضحي برغبتي في الانتقام والعمل والمغـامرة ، بقيت الى جانبها ؛ اما اذا كان العكس وكنت أحس ان حبي لوالدتي ليس كافيـاً وليس بهذه القوة لكان علي ان اسافر .

ولكن كيف نحدد قيمة العاطفة أو الاحساس الباطني ؟ او ما الذي يجعل لعاطفة ما قيمة ؟

والجواب هنا هو بقاء الشاب الى جانب والدته .
وهنا اقول انني لا استطيع ان اقيم (اعطي قيمة) عاطفة ما الا اذا قمت بعمل من شأنه ان يحـــدد هذه القيمة ويوضح معالمهـا . فانا لا استطيع ان اقول : احب والدتي لدرجة بقيت معها الى جانبها ، الا اذا بقيت بالواقـــع الى جانب والدتي ... فالعمل يحدد العاطفة والميل . وبما انني اطلب هنا الى العاطفة ان تبرر عملي اجد نفسي وسط حلقة مفرغة .

أضيف الى ذلك ان « اندريه جيد » قد عبر عن ذلك بقوله: ان عاطفة تعتمل وعاطفة تعمل لاتختلفان. ان ابقى الى جانب والدتي او ان أمثل دور البقاء الى جانبها تمثيلاً هما في الواقع امران لا يختلفان .

العواطف تتكون باعمالنا

وهذا يعني ان العواطف تتكوّن بالأعمال التي نقوم بها . فلا استطيع اذن ان اعتمـــد على العاطفة لكي تقودني الى عمل ما ، وهذا ما يدفعني للقول انني لا استطيع ان ابحث في اعماقي عن الدافع للعمل ، كما انني لا استطيع ان اطلب ذلك عند اية نظرية اخلاقية .

وقد تحتجون على قولي هذا بأن الشاب قد ذهب على الأقل الى استاذ ليستشيره في امره . ولكن الا ترون معي انكم اذا استشرتم كاهنـــاً تكونون قد اخترتم هذا الكاهن ؛ فاذا اخترتموه فانكم تعرفون مسبقـــاً ما سيشير به ، او بتعبير آخر : ان مجرد

اختيار المستشار هو اختيار للمشورة والتوجيه وهذا يعني ان علي ان انضوي واتحمل مسؤولية شخصية . فإذا كان احدنا مسيحياً وأراد ان يستشير كاهناً لتردد بين اختيار نوع من الانواع وفئـة كهنة دون غيرهامن الفئات . فهناك الكاهن الذي يريد ان يساعد، وهناك الكاهن الصارم الشديد أو الكاهن الهادىء الواعي الخ ...

وهكذا عندما جاءني هذا الشاب ليسألني مشورة في اضطراب امره كان يعرف مسبقاً جوابي الذي يتلخص بما يلي : انت حر ، فاختر بنفسك . ان ايـة نظرية اخلاقية شاملة لا تستطيع ان تهديك . ان الحياة ليس فيها علائم وبشائر تنير السبيل .

لا وجود لاية اخلاق شاملة

ولكن الكاثوليكيين يصرون على وجود علائم . فلنفرض ذلك ولنقل به فان ذلك لا ينفي انني أنا الذي اعطي معنىً خاصاً ومفهوماً محدوداً لتلك العلائم .

لقد عرفت عندما كنت اسيراً زمن الحرب رجلاً يسوعياً وكان قد دخل الى سلك الرهبنة على النحو التالي ...

لقد كان عرضة للفشل عدة مرات فعرف مرارة الفشل واعتاد ان تصدمه الحياة . فقد والده وهو طفل فالتحق باحدى الجمعيات الدينية التي تولت أمره

وجعلته يحس دوماً انه لم يقبل في عداد طلابها الا بدافع الاحسان ففقد بتأثير ذلك حظه في نيل عدة جوائز مدرسية ، ثم تعرض وهو في الثـــامنة عشرة لهزة عاطفية فعرف فشلاً في حب ، ثم لم تسمح له ظروفه وهو في الثانية والعشرين بالالتحاق بالجندية .
فهذا الشاب يستطيع ان يعتبر انه فشل في كل شيء . فذلك كان اشارة ، ولكن اي نوع من الاشارات ، واشارة الى اي شيء ؟ كان باستطاعته ان يرتمي في احضان المرارة واليأس ، ولكنه شخصياً اعتبر بتردد الفشل في حياته انه لم يخلق ليعيش ويبلغ قمم النجاح العادية ، بل خلق ليكون للدين والقداسة والايمان . فاعتبر اذن ان هناك وحياً من الله ، وهكذا دخل في سلك اليسوعيين .

فمن يستطيع ان ينكر ان القرار كان قراره الشخصي، وان الاشارة والعلائم ليست محددة الا بمجرد ان نعطيها مفهوماً خاصاً ونوجهها توجيهنا الشخصي .

فان حالته بعد فشله لا تعني ان عليه حتما ان يختار الرهبنة ، فقد كان باستطاعته ان يتجه نحو العمل اليدوي فيكون نجاراً أو يتجه نحو الثورة فيكون ثورياً . فهو يتحمل كل مسؤولية الاختيار فان الاهمالية التي ذكرناها تستوجب منا ان نختار حياتنا بانفسنا . والاهماليـة Delaissement تسير جنباً الى جنب مع الكآبة Angoisse اما اليـأس له معنىً بسيط للغاية :

اليأس *Le désespoir*

فهو يعني اننا نعتمد دوماً على ما يتأثر بإرادتنا ، على مجموعة الممكنات التي تجعل اعمالنا ممكنة ... اننا عندما نريد شيئاً فاننا نطالع امامنا عدة ممكنات فأنا استطيع ان اعتمد على حضور احد الاصدقاء ، وقد يحضر سائراً على قدميه او يحضر بالقطار او بالترام ، وهذا يفرض ايضاً ان يصل القطار في الوقت المعين او ان يخرج الترام عن خط سيره .

الجائز او الممكن

فأبقى دوماً ضمن نطاق الممكنات ، بما ان هذه الممكنات والجوازات لا تخضع لاية حدودية ، ولا تخضع لأية مقاييس وذلك يجعلني لا اعتمد عليها كل الاعتماد ... لان اي إله وأية رغبة او تدبير لا تستطيع ان تجعل هذه الممكنات الحياتية تتناسب مع ارادتي الخاصة .

وفي الواقع ان ديكارت عندما كان يقول : « خير لنا ان نتغلب على انفسنا لا على الكون » كان يعني الشيء نفسه : « اعمل بدون أمـــل » ، لان الكون لا يغلب .

اليأس والعمل

اجابني الماركسيون الذين ناقشتهم بذلك :

تستطيع على اي حال ان تعتمد في عملك المحدد بمدى حياتك والذي يتوقف عند موتك ، على معونة

غيرك ؛ وهذا يعني ان تعتمـد على مـا يقوم بـه غيرك في الصين أو روسيـا ، وان تأمـل في معونتهم بعـد وفاتك . وهذه المعونة هي في اكالهـم لعملـك حتى يصلوا به لكماله اي : للثورة ؛ فعليك اذن أن تعتمد على تلك المعونة والا فانك لست مناقبياً (اخلاقياً) .

اجبت على ذلك بقولي : انني اعتمـد دائمـاً على رفاق في المعركة عندما ينضوي هؤلاء الرفـاق معي في معركة محددة وذات اهداف عامة تتصل بحزب أو جمعية استطيع دوماً مراقبة اعمالها . وهذا يعني ان الحزب الذي انضم اليه يجب ان اراقب تصرفاته وقراراته . وفي هذه الحالة يصبح الاعتماد على وحدة الحزب وعلى ارادة الحزب كذلـك الاعتماد على وصول القطار في الوقت المحدد او على عدم خروج الترام عن خط سيره .

وانا لا استطيع ان اعتمد على رجال لا اعرفهم بدافع ايماني بطيبة البشر او برغبتهم المخلصة في خدمة المجتمع ، لانني اؤمن بان الانسان حر واؤمن ان ايـة طبيعة انسانية ليست موجودة .

انا لا اعلم ما ستكون نتيجة الثورة الروسية . انني اعجب بتلك الثورة لانها تجعل طبقـة العمال والفلاحين (بروليتاريا) تقوم بدور لا تقوم به في اية دولة اخرى . ولكن ذلك لا يجعلني اؤكد انه سيقود حتمـاً الى الهـدف الاسمى وهـو سيطرة البروليتاريا وانتصارها .

ان علي ان التزم حدود ما ارى ، ولا استطيع

ان اؤكد ان رفاقاً لي في الجهاد سيتابعون جهادي ومهمتي بعد موتي ليدفعوها قدماً في سبل النجاح حتى يصلوا الى الكمال لانني اؤمن بان كل رجل حر وهو يقرر غداً وجهة نظر خاصة في الانسان .

الانضواء *L'engagement*

غداً بعد موتي تستطيع فئة من الرجال ان تقيم نظاماً فاشستياً ، وتستطيع غيرهـا ان تتخـاذل فتتركها تفعل ذلك دون مقاومة . عند ذلك تصبح الفاشستية هي الحقيقـة الانسانية ولنذهب نحن الى الشيطان .

ستكـون الامـور على النحـو الذي سيقـرره الانسان ...

هل يعني هذا ان عليّ ان ارتمي في فراغ كلي ؟

كلا ان عليّ ان انضوي وان اعمل بناء على تلـك الحكمة القديمة التي تقول : « ليس من الضروري ان نأمل لكي نعمل » .

وهذا لا يعني انه لا يجب ان انضم الى حزب من الاحزاب ، بل يعني انني سأقوم باعمال لا تتعدى استطاعتي .

فاذا ما تساءلت : هل التكتل على النحو الذي ارى سيصل يوماً الى اهدافه ؟ فانا لا اعلم من الحقيقة شيئاً . وجل ما استطيع ان اؤكده هو انني سأقوم بكل ما استطيع ، واما فيما عدا ذلك فانا لا استطيع

ان اعتمد على شيء ...

الوجودية تناقض الخمول
Quiétisme

ان المذهب الوجودي يناقض تماماً الخمول لانه يعلن بصراحة أن لا حقيقة الا في العمل .

وهو يذهب الى أبعد من ذلك فيقول : ان الانسان ليس الا مشروعه الانساني ، وهو لا يوجد الا بمقدار ما يحقق ذلك المشروع ، فهو اذن عبارة عن مجموعة اعمال تكون حياته .

وعلى ذلك نستطيع ان نفسر ذلك الفزع والرهبة اللتين تصيبان البعض عند اطلاعهم على هذه النظرية .

الايمان الكاذب
La mauvaise foi

اذ الواقع ان لهذا البعض طريقة دائمة في تحمل المصائب فهم يعتبرون دوماً (ان الظروف كانت ضدهم) وانهم يساوون اكثر بكثير مما كانوه ، وانهم اذا كانوا لم يقيموا صداقات وطيدة أو حباً عنيفاً بعد فلأنهم لم يصادقوا الرجل او المرأة التي تستحق صداقتهم او حبهم ولم يؤلفوا كتاباً قيماً لانهم لم يجدوا متسعاً من وقتهم ولم ينجبوا اطفالاً لأنهم لم يجدوا الشخص المناسب الذي يتعاونون معه في هذا السبيل .

وهكذا يبقون بنظري غير مستعملين ، يبقون

مجموعة من الامكانيات والاستعدادات والميـول لا قيمة لها بحد ذاتها .

فمن وجهة نظر الوجودي لا يوجـد حب غير ذلك الذي هو في سبيل التكوين ، وليس هناك من امكانية حب الا في حب .

قيمة الانسان فيما يقوم به من اعمال

ليس هناك من عبقرية الا متجلية في انتاج فني . ان عبقرية مارسيل بروست Proust هي في مجموعة انتاج مارسيل بروست ؛ ان عبقرية راسين Racine هي سلسلة مسرحياته . أما ما عدا ذلك فلا قيمة له . فلماذا نقيم مثلاً أدنى وزناً لامكانية انتاج مسرحية جديدة عند راسين طالما انه لم ينتجها بعد ؟

ان الانسان ينضوي في حياته ، ويرسم الصورة التي يريد ان يكون عليها ، وان ما لا يرسمه الانسان في الواقـع ليس له أدنى وجود وبالتالي ليس له ادنى قيمة ...

انني اسلم بان هذه الفكرة تظهر قاسية بالنسبة لمن لم ينجح في حياته ، ولكنها من جهة اخرى تقيم الوزن كله للحقيقة فحسب واما ماعدا ذلك كالاحلام والصبر والآمال فانها لا تسمح إلا بتعريف شخص على اساس انه حلم لم يتحقق او صبر لا طائل تحته او أمل قاتم يسعى بلا جدوى .

وان تعريفاً كهذا يصح ان يعتبر سلبياً لا ايجابياً ومع ذلك حين نقول : (لست الا حياتك) ، فان ذلك لا يفرض ان الفنـان لا تعرف قيمته الا من انتاجه الفني ، بل انه على العكس من ذلك قد تدخل اشياء أخرى في تقدير قيمته . وجل ما نقصده هو ان الانسان لا قيمة له الا بما يهتم به وما يسعى في سبيله وما يؤديه من اعمال وما يقيمه من علائق..

وهكذا نرى أن اتهامنا بالتشاؤم يجب ان يزول ليحل محله اتهام آخر وهو : اتهام بالتفاؤل الشديد

تشاؤم او تفاؤل شديد

اننا نتهم باننا نصور في مؤلفاتنا القصصية اشخاصاً ضعفاء وجبنـاء ومنحلين واننا لا نكتب الا عن الاشرار ، فنحن لا نصور الضعيف والمنحل لانه ضعيف او منحل ولا نصور الشرير لانه شرير فحسب ونحن الى ذلك لم نقم بمـا قام به اميل زولا مثلاً الذي يعلن ان الشرير ليس شريراً الا بفعل الوراثة وتأثير المجتمع والوسط وبفعل حتمية نفسية او جسدية مقررة فيه ، وبذلك يصبح المجـال متسعاً امام الشرير والفاسد ليبرر تصرفه قائلاً : اننا انما خلقنا على هـذا النحو واننا لا نستطيع ان نعـدل في الأمر شيئاً .

أما الوجودية فانها عندما تصف ضعيفاً او فاسدا فانها تقول ان هذا الضعيف مسؤول عن ضعفه ، وانه

ليس ضعيفاً لان له قلباً ورئتين وجسداً وتركيباً عاماً لا تهيئه الا لمثل ما هو عليه من ضعف وانحلال بل انها تقول ان الفاسد ليس فاسداً الا لانه كوّن نفسه كذلك بتصرفاته واعماله ومآتيه .

مسؤولية الانسان

ليس هناك طبع او مزاج فاسد ، هناك اشخاص فقراء الدم وهناك اشخاص حادو المزاج ولكن الجبن او الفساد ليس نتيجة المزاج الحاد أو الدم الفقير لان الذي يكوّن الجبن هو التراجع والتخاذل امام المصاعب .

وان الجبان لا يعرف كجبان الا اذا أتى عملاً تميز بالجبن .

ان ما يخيف حقا في نظريتنا هو اننا نصور الجبان مذنباً بجبنه ومسؤولاً عنه . اما ما يرضي الناس فهو ان نقول اننا نولد جبناء أو ابطالا .

ممـا يؤخذ على (طرق الحريـة) [1] « Chemins de la liberté » أنـه صور اشخاصـاً منحطين وجبناء وجعل منهم ابطالاً لقصة كاملة ! وان في ذلك لتصرفاً عجيباً ...

وفي وهم هؤلاء المنتقـدين ان الجبنـاء يولدون جبناء وان الابطال يولدون كذلك ابطالا .. ان هذا الانتقاد لمثير للضحك فهل يتصور هؤلاء ان من

---

(١) من القصص الوجودية التي ألفها جان بول سارتر .

ولد جباناً فعليه ان يبقى كل عمره جباناً لا يتصرف الا كجبان ، وان من ولد بطلا سيبقى ابد حياته لا يأكل الا كبطل ولا يشرب الا كبطل ؟

ان الانسان يصير جباناً وانه يصير بطلاً ، بل الاحرى بنا ان نقول : ان الانسان يصيّر نفسه جباناً او يصيّر نفسه بطلاً .

ان امام الجبان امكانية التحول عن الجبن وان امام البطل امكانية عدم البقاء بطلا .

ان الانسان ينضوي انضواء كاملا في حياته ...

وهكذا نكون قد أجبنا على عديد من الانتقادات التي توجه الى الوجودية :

فالوجودية لا يمكن ان تعتبر فلسفة الدعة أو اليأس لانها تحدد الانسان بأنه حركة وعمل .

ولا يمكن ان تعتبر وصفاً متشائماً للانسان لانها ترى ان غاية الانسان لا تخرج عن ذاته وتكوينه .

الوجودية نظرية تفاؤل

ولا يمكن ايضاً ان نعتبر الوجودية محاولة لتثبيط همة الرجل وتحويله عن العمل لانها لا تجعل له املاً في العمل والسعي .

وعلى هذا الاساس يصح ان نعتبر انفسنا امام نظرة اخلاقية عملية انضوائية .

« Une morale d'action et d'engagement »

واننا نُتهم الى ذلك بأننا نسجن الانسان ضمن

ذاتيته وهنا ايضاً أميء فهمنا .

La subjectivité الذاتية

ان نقطة الانطلاق عندنا هي ذاتية الفرد وان لذلك ما يبرره فلسفياً . واننا لا نقيم للذاتية ذلك الوزن لاننا بورجوازيون بل اننا اصحاب مذهب يقوم على أسس واقعية ويعتمد الحقيقة ركيزة للبحث ولا يبني صرحه على نظريات جميلة يضخمها الامل ويعلوها التفاؤل وينقصها الاساس المتين المعتمد على الحقيقة .

لا يمكن ان نعتبر ان هناك حقيقة يصح ان ننطلق منها غير حقيقة « انا افكر فاذن انا موجود » ... فان تلك الحقيقة هي المطلقة التي يندفع اليها الوجدان ليعي نفسه ويعي بالتالي وجوده .

انا افكر فاذن انا موجود [1] *Le* cogito

ان كل نظرية تعتبر الانسان المبتعد عن حقيقة وعيه لنفسه واتصاله بها ، نظرية تناقض الحقيقة والواقع .

ان كل ما يتصور خارجاً عن هذه الحقيقة الاولية ، حقيقة (أنا افكر فاذن أنا موجود) يقع في عالم امكانيات لا يتصل بالواقع والحقيقة وهو لذلك يذوب في العدم .

---

(١) ان هذه الفكرة كانت نقطة انطلاق الفيلسوف ديكارت
Descartes : « Je pense , donc Je suis »

اننا لا نستطيع ان نحدد الممكن الا اذا تملكنا الحقيقي الواقعي اذن فمن شروط ايجاد حقيقة ما يجب ان نعتمد حقيقة مطلقة ، وهذه الحقيقة بسيطة للغاية :

هذه الحقيقة هي في متناول الجميع وهي لاتعني اكثر من انّ علينا (أن نعي انفسنا بانفسنا و بدون اية واسطة كانت .)

ومن جهة ثانية فان الوجودية هي النظرية الوحيدة التي تقيم للانسان كرامة شخصية لانها الوحيدة التي لاتجعل من الانسان وسيلة او موضوعاً او غرضاً .

الوجودية والمادية

ان من نتائج كل نظرية مادية ان تجعل من الانسان وسيلة وغرضاً ، اعني بذلك انها تعتبره مجموعة محددة من التأثرات ومن (ردود الفعل) اذا صح التعبير .. مما لا يميزه بالتالي عن اية طاولة او كرسي او حجر .

اننا نريد ان نكوّن العالم الانساني كمجموعة قيم تختلف تماماً وتتميز عن العالم المادي ..

ولكن الذاتية التي نتوصل اليها في هذا المضمار ليست ذاتية فردية خالصة ، لأننا بيّنا انه في (انا افكر فاذن انا موجود) لانعي انفسنا فحسب ولكننا نعي الاخرين .

الذاتية عند ديكارت
والذاتية عند الوجوديين

(أنا افكر) لا تجعلني أعي نفسي كما اعتقد (ديكارت) و (كانت) ولكنها تجعلني أعي نفسي مواجهاً الآخرين ، وتجعل الآخر حقيقة أكيدة لي ووعيي له لا يقل قوة عن وعيي لنفسي .

وهكذا فان من يتصل اتصالا مباشراً بنفسه بفضل (انا افكر فاذن انا موجود) يكتشف ايضاً الآخرين كشرط لوجوده ... لانه لا يصح ان يعتبر انسان نفسه حاسداً او فاسداً او ذكياً الا اذا اقر الآخرون له بذلك . فلكي أكون لنفسي حقيقة عن نفسي يجب ان أمر بالآخرين .

الاخلاق والفن

وجود « الغير »

وجود الآخر شرط لوجودي وشرط لمعرفتي لنفسي وعلى ذلك يصبح اكتشافي لدواخلي اكتشافاً للآخر كحرية تعمل اما الى جانبي او ضدي .

وهكذا نوجد عالماً آخر ، عالم ما (فوق الذاتية) فيه يقرر الانسان ماهيته وماهية الآخرين .

« الشرط » الانساني

وبعبارة أخرى انه من المستحيل ان نجد في كل انسان جوهراً كونياً يصح اعتباره طبيعة انسانية عامة .. ان ما يوجد حتماً في كل مكان هو (كونية الظرف) وانطباقه على جميع الحالات . وليس عبثاً

ما يذكره مفكرو اليوم عن « ظرف » الانسان لا عن « طبيعة » الانسان .

ويعنون بكلمة « ظرف » جميع الحدود التي ترسم موقف الانسان في الكون .

الموقف التاريخي « والظرف » الانساني :

تختلف المواقف التاريخية وتتنوع : يستطيع الانسان ان يولد عبداً في مجتمع ملحد ، او سيداً اقطاعياً او عاملاً بسيطاً . ولكن الشيء الذي لا يتغير فيه هو وجوب كونه في هذا العالم ، وكونه منخرطاً في العمل بين اخرين وكونه سيموت حتماً ..

فهذه الحدود ليست ذاتية وليست خارجية ، بل ان لها وجهاً ذاتياً ووجهاً خارجياً .

والوجه الخارجي او الموضوعي هو في اننا نلتقي بها في كل مكان ونتعرف اليها ، اما الوجه الذاتي ففي كونها حدوداً (تعاش) وانها تصبح غير ذات قيمة اذا لم يعشها الانسان .

لا قيمة لاي مشروع او اية فكرة اذا لم يحيها الانسان بأن يعيشها .

والى ذلك فان اي مشروع مهما بلغ من الذاتية فانه يحافظ على (قيمة عامة او كونية)
Valeur universelle

كونية المشروع الذاتي

ان كل مشروع حتى مشروع الرجل الصيني او

الهندي او الزنجي يمكن ان يكون مفهوماً عند الاوروبي مثلاً . وهذا يعني ان الاوروبي يستطيع ان يذهب بخياله الى حدود مشروع الصيني ويتصور (موقفه) ويحيي في نفسه فكرة الهندي او الزنجي .

ان هناك (كونية) شاملة في كل مشروع بمعنى ان كل مشروع يمكن ان يفهمه كل انسان .

ان هناك طريقة لفهم الاحمق والطفل والرجل البدائي او الغريب شرط ان يكون عندنا المعلومات الكافية ...

وعلى ذلك يصح ان نعتبر ان هناك (كونية للانسان) ولكن هذه الكونية ليست معطاة نهائياً بل انها تتكون وتتطور

شمولية الانسان

انا اخلق الصفة الكونية باختياري لنفسي .. انا اخلقها بفهمي لمشروع كل رجل من اية حقبة تاريخية كانت . وذلك لا ينفي النسبية في كل حقبة .

ان ما تسعى الوجودية لتبيانه هي تلك الصلة بين صفة الاطلاق في الانضواء او الانخراط الحر وبين النسبية الذاتية في ذلك الانخراط او الاختيار . ففي الانضواء المطلق يسعى الانسان ليحقق مثالا انسانياً يسهل فهمه في كل حقبة وبالنسبة لكل فرد مع مراعاة النسبية في ذلك .

وهكذا يصح ان نقول ، اذا اردتم ، ان كل واحد

منا يقوم بعمل (مطلق) Absolu عندما يتنفس ، وعندما يأكل وعندما ينام او يتصرف بطريقة ما.

ليس هناك فرق بين ان يكون الانسان حراً ، ان يكون مشروعاً ، ان يكون وجوداً يختار جوهره وبين ان يكون كائناً (مطلقاً) شاملاً .

ليس هناك فرق بين ان يكون كائناً محدداً في الزمان والمكان وبين ان يكون كائناً يحمل مفهوماً كونياً ...

الاختيار والذاتية

ان هذا الجواب لا يحل المشكلة ولا يقضي على حجة الذين يتهموننا بالذاتية .

وفي الواقع ان اعتراضهم علينا في هذا المضمار يتخذ اشكالاً مختلفة : فهم يقولون لنا مثلاً : ما دمتم ذاتيين فانكم تستطيعون ان تفعلوا ما تريدون . فيتهموننا بالفوضوية . ثم يضيفون : انكم لا تستطيعون ان تحكموا على الغير لانه لا يوجد اي مقياس يجعل تفضيل شخص على آخر امراً ممكناً . ثم يتهموننا بأن اختيارنا ليس له ادنى قيمة لاننا نرمي باليد الاولى ما نتلقاه باليد الثانية .

وعلى هذه الاعتراضات الثلاثة نجيب كما يلي :

فعلى اعتراضهم علينا باننا نستطيع ان نختار اي شيء نجيب بان هذا الاعتراض ليس صحيحاً .

ان الاختيار ممكن وهو الشيء الذي لا نستطيع الا ان نفعله .

اني استطيع دوماً ان اختار وعندما لا اختار فانني لا اكون في الواقع الا قد اخترت : لقد اخترت ان لا اختار pas choisir .

ومهما ظهر ان هذا لا يعدو السفسطة فـــان له اهمية كبرى لانه يقف حائلا دون الفوضى ودون النزوات .

الموقف

اني امام موقف محدد يجب ان اختار ، فكوني رجلا نه حيوية جنسية يجبرني على ان اقيم علاقات مع كائن آخر من جنس آخر ، ويجبرني على ان يكون لي اطفال ، وباختياري لهذا الموقف اتحمل مسؤولية الاختيار . واني بانضوائي هــذا اجعل الانسانية كلها تنضوي معي ، وان اختياري هذا لا يمت بصلة ما الى النزوة التي عناها (اندره جيد)

الاختيار ونظرية اندره جيد

ان اندره جيد يشرح تماماً ما هو الموقف وهو يتصرف تبعاً لنزواته .

اما بنظرنا فان الانسان يعيش في موقف محدد عليه ان يختار وينضوي ، وانه باختياره وانضوائه يجعل الانسانية جميعها تختار وتنضوي ، وهو لا يستطيع ان يتفادى الاختيار .

فالانسان اما ان يبقى طاهراً من النـــاحية الجنسية ، واما ان يتزوج ولا يسعى لكي يحصل على

اطفال ،وأما أن يتزوج ويكون له اطفال، فهو على كل حال ومهما فعل انما يتحمل مسؤولية كاملة تجـاه هذه المسألة .

وهو يختار طبعاً دون ان يعود الى قيم مقررة سابقة ولكن من الخطأ اتهامه بأنه يفعل ذلك بدافع النزوة .

فلنقل ان الاصح ان نشبه الاختيار الاخلاقي (المناقبي) بأي عمل فني .

ولنسرع هنا لندفع عن انفسنا ذلك الاتهام الذي الصقه بنا اعداؤنا فوضعوا علم الاخلاق عندنا بانـه لا يختلف عن الفن .

فهل حدث ان أخذ على فنان انه لم يعتمد في رسمه لوحة ما على شروط الرسم المحددة المعروفة في هـذا الباب ؟ وهل حددت يوماً اللوحـة التي عليه ان يرسمها ؟

من البديهي انه لا توجد لوحة محـددة يجب ان تكون مرجعاً ، ومن البديهي ان الفنـان ينضوي ويتحمل مسؤولية رسمه وان اللوحة الواجب رسمها هي تلك التي يكون قد رسمها ، فمن المحتم انه لا يوجد هناك قيم فنية مفروضة ، ولكن القيمة الوحيدة هي في تناسب اللوحة وفي العلاقة بين ارادة الخلق عنـد الفنان وبين النتيجة الظاهرة .

لا يستطيع احد ان يحدد كيف سيكون التصوير

الزيتي غداً ! وان الحكم على الرسم لا يكون الا بعد ان يكون الرسم .

وان صلة هذا كله بالاخلاق هي في كوننا دائماً في نفس الموقف الخلاّق .

ففي الاخلاق كما في الفن تلعب القوى الخلاّقة دورها الاول .

اننا لا نستطيع ابداً ان نتهم قطعة فنية بانها عديمة القيمة وعندما نتكلم عن لوحة لبيكاسو (١) Picasso لا يصح ان نتهمها بانها غير ذات وزن لانها ليست الا خلقاً لم يكن ليتم ويتكامل الا حين انصرف بيكاسو الى رسمها ، وان مجموعة ما قام به بيكاسو لا يتجزأ عن حياته نفسها .

الاخلاق والوجودية (٢)
La morale existentialiste

وعامل الخلق والاختراع هذا هو الصفة البارزة في ميدان الاخلاق . فنحن لا نستطيع ان نقرر بصورة ايجابية ما علينا ان نفعله ، واعتقد انني قد شرحت ذلك بما فيه الكفاية عندما ذكرت مثل ذلك الطالب الذي جاء يطلب مشورتي والذي كان باستطاعته ان يتجه نحو جميع النظريات الاخلاقية

---

(١) صاحب مذهب السريالية في الرسم .
Surréalisme

(٢) نعتمد كلمة « اخلاق » ترجمة لكلمة Morale وبذلك نتفادى استعمال كلمة « آداب » او كلمة « مناقبية » .

دون ان ينتظر ادنى بصيص نور او هداية ، فأصبح مضطراً ان يخلق قانوناً لنفسه بنفسه ، فـــانه ان اختار البقاء الى جانب امه بدافع المحبة والمصلحة العاطفية ، او الذهاب الى الحرب في انكلترا فانه لا يكون قد اتى على اي حال عملاً لا قيمة له .

ان الانسان يختار « اخلاقه »

« L'homme choisit sa morale

الانسان يختار اخلاقه

ان الانسان ليس كائنـاً تام التكوين بـــل كائـن يتكون ، وهو يتكون باختيار لنوع « اخلاقه » ، وان ضغط الظروف المحيطة به قوي لدرجة لا يستطيع معها الا ان يختار .

اننا لا نجد الانسان الا بالنسبة لانضواء ما ، فمن السخف اذن ان نتهم اننا نعتمد على الاختيـــار الذي لا قيمة له

الاختيار عمل قيم

ومن جهة اخرى انـكم عاجزون عن اعطـاء رأي في الاخرين ، ان ذلك صحيح الى حد مـا . ان ذلك صحيح لان الانسان كلما اختار ما يريد التزامـه وهو حر التصرف صافي الفكر يحس انه لم يكن باستطاعته ان يختار شيئاً آخر ، ان ذلك صحيـح لاننا لا نؤمن بالتقدم : فالتقدم عندنا لا يعدو ان يكون تحسناً .

الوجودية والتقدم

فالانسان هو هو في موقفه في الحياة ، واختياره هو نفس اختياره في ذلك الموقف ولم يتغير في جوهر القضية شيء منذ كان الانسان يستطيع ان يختار بين تحليل الرق او تحريمه الى ان اصبح اليوم يستطيع الخيار بين حزب شيوعي او حزب رأسمالي ...

الانسان يختار نفسه متأثرا بالغير

ولكن ذلك لا يمنعنا من القول ان الانسان عندما يقوم بعمل مختار حر انما يقوم به وهو يواجه الآخرين وهو اذ يختار مشروع حياته يختاره وهو يواجه الغير

فنستطيع ان نحكم ان بعض ما نختاره يعتمد على الخطأ ولا يؤدي الى الصواب . والبعض الآخر لا يؤدي الا الى الحقيقة .

نستطيع ان نحكم على رجل ونقول انه ذو ايمان فاسد Nauvaise foi ولكن احكامنا هذه لا تعدو ان تكون احكاماً تعتمد على المنطق على اية اخلاق محددة وواضحة .

واذا نحن حددنا الانسان بانه كائن عليه ان يختار وهو حر ، عليه ان يختار وهو في موقف يجعله يواجه الغير ويواجه نفسه ، اذا حددنا الانسان بذلك وقلنا ان لا عذر له ولا معين ، فان كل انسان يتخفى وراء عواطفه وانفعالاته يحملها المسؤولية كلها ، وان كل انسان يدعي ان القدر او الحتمية تسيطر عليه ،

كل انسان يهرب من حريته ولا يتحمل مسؤولية اختياره كاملة ، كل انسان يلقي التبعة على مختلف العوامل ، كل انسان من هذا النوع هو فاسد الايمان .

الايمان الفاسد

وقد يحتج البعض قائلاً : أليس للانسان ان يختار حراً هذا الايمان الفاسد ، فأجيب انني لا احكم اخلاقياً على تصرفه وانما جل ما اقول هو انه اخطأ بعمله وتصرفه هذا .

ان الايمان الفاسد لا يعدو ان يكون في جوهره كذباً وخداعاً لانه يخفي حرية الانضواء او الالتزام الكاملة .

اكون ذا ايمان فاسد اذا ادعيت ان هناك قيماً ومبادىء وجدت قبل ان أوجد وان هذه القيم مفروضة علي وانني اختارها اختياراً حراً في نفس الوقت .

واذا قال لي قائل : (واذا اردت ان اكون ذا ايمان فاسد ؟) فانني أجيبه : ليس هناك ما يمنعك من ان تكون كذلك ، ولكنني اعلن انك ذو ايمان فاسد وان الموقف الذي لا تناقض فيه هو الموقف المعاكس ، اي موقف الايمان الصحيح .

الحريـــة

وانني اؤكد ان الحريـــة في الاختيار لا تعني

الا اختيار الحرية . الحرية لا تختار الا نفسها .

واذا اعتبر الانسان ان له حرية وضع القيم الاخلاقية والوجودية فانه بالتالي يقر: هذه الحرية هي ذاتها التي يجب ان تبقى في اساس القيم .

وهذا يعني ان اعمال الانسان ذي الايمان الصحيح لا تعني الا الحرية الناصعة . ولا تعني الا الجري المضني خلف هذه الحرية . فالايمان الفاسد موقف متناقض في ذاته وهو لا يملك ان يستقيم .

ان الانسان الذي ينضم الى نقابة شيوعية او ثورية فهو انما يسعى خلف اهداف ملموسة ، وهذه الاهداف تستلزم من المجموع المجرد بحثاً عن الحرية . ان سعينا خلف الحرية لا يجب ان يتخذ اي شكل آخر . اننا نبحث عن الحرية لذاتها . واننا في سعينا هذا يجب ان يكون واضحاً في اذهاننا ان حريتنا متصلة بحرية الاخرين ، وحرية الآخرين مرتبطة بحريتنا .

حريـــة الغير

ان الانسان ليس انساناً الا بحريته . فالحرية يصح اعتبارها تعريفاً للانسان . واننا اذ نريد ان نجعل حريتنا هدفاً نسعى اليه لا يسعنا الا ان نعتبر حرية الآخرين هدفاً هو ايضاً نسعى اليه .

فاذا اعتبرت انه فيما يخص الانسان ، الوجود يسبق الجوهر ، وان الفرد لا يستطيع في مختلف مراحل حياته وكافة مواقفه الا ان يختار حريته سبيلا ، اذا صح

بالتالي ان أعتبر ان الانسان لا يستطيع الا ان يختار حرية الغير .

فباسم ارادة الحرية لنفسي ولغيري ، استطيع اذن ان الفظ احكاماً على الاشخاص الذين يريدون اخفاء وجودهم الجوهري بمختلف الطرق :

فبعضهم يتستر خلف المظهر الجدي Le sérieux محاولا بذلك اخفاء ما يعانيه من وجود متناقض .

والبعض الآخر يختلق اعذاراً اخرى فيدعي اننا مسيرون لا نستطيع مع القدر شيئاً .

هؤلاء! ادعوهم جبناء !.

وفئة اخرى تدعي ان وجودها كان محتماً وضرورياً ، بينما هم في الواقع لا يعدون ان يكونوا عرضاً قذفته صدفة ظهور الانسان على الارض .

هذه الفئة : ادعوها فئة : القذرين Les salauds

ولكن أكانوا جبناء ام قذرين فاننا لا نستطيع الحكم عليهم الا بناء على وجودية صميمة .

وهكذا فانه مهما كانت الاخلاق متغيرة فاننا لا نعدم منها مظهراً يصح ان يعتبر شاملاً .

فان (كانت) يصرح ان الحرية تريد نفسها وتريد حرية الاخرين .

الأخلاق المجردة
والاخلاق الحية

ونحن نتفق بذلك مع « كانت » ، ولكنه يعتبر ان

اخلاقاً مجردة وشكلية محضة تستطيع ان تكون نواة اخلاق شاملة وعامة .

ونحن نعتبر على عكس ذلك ان اخلاقاً مجردة لا تستطيع ان تستقيم في عالم الحركة والحياة ...

وأعود مرة اخرى الى ذلك الطالب الشاب الذي جاء يطلب عندي المشورة : فعلى هدي اية اخلاق عامة شاملة كان يستطيع ان يحدد موقفه وهو مطمئن هادىء البال . اكان يستطيع ان يترك أمه ام كان يستطيع البقاء معها ؟

اننا لا نملك ادنى وسيلة للحكم بذلك ...

ان الحياة لا تستطيع ان تضيع معالمها في عالم التجريد والتفكير البعيد عن الواقع المحسوس .

لذلك وجب ان نخترع

الاختراع واقع دائماً . والشيء الوحيد الذي يهمنا امره هو ان نعرف اذا كان هذا الاختراع يحصل بناء على ما تستدعيه حريتنا ام لا ؟

فلنأخذ المثلين التاليين : وهما تمثل بطلة قصة « *Le* moulin sur la floss » التي وقعت في حب شاب مرتبط بخطبة امرأة اخرى . هذه المرأة بدل ان تندفع خلف حب طائش اختارت ان تضحي بنفسها وتمتنع عن حب ستيفان .

وبعكس ذلك ما نراه في قصة « قلعة بارم » « *La* chartreuse de parm » اذ ان البطلة التي تعتبر ان الحب هو القيمة السامية ،

تتجاهل علاقات حبيبها بزوجته وتتناساها ، معلقة كل اهتمامها على الحب والسعادة التي تتبعه . فهي تخلص للحب بينما كان الاخلاص في المثل الأول للتضحية بالحب . وفي القصة الثانية نجد امرأة على استعداد للتضحية بحياتها من اجل عاطفتها بينما التضحية كانت بالحب في الاول .

فنحن امام مثلين متناقضين للاخلاق : اما انا فأنني اعتبرهما متشابهين ومتساويين :

ففي الحالتين كان الهم الاول والأخير هو الحرية ... واما النتيجتان فلا اختلاف فيهما : فتاة ضحت بحبها راضخة ، واخرى اندفعت خلف الشهوة متناسية صلات حبيبها السابقة .

وخلاصة ذلك كله اننا نستطيع ان نختار كل شيء واي شيء على صعيد الانضواء الحر .

القيم الوجودية

والانتقاد الثالث الذي يوجه الينا هو التالي :

ان الوجودي يأخذ باليمين ما يعطي نفسه بالشمال ،

اي ان القيم ليست في الحقيقة جدية لانها تخضع لاختيار الانسان الحر .

وعلى ذلك اجيب انني متأسف جداً ان تكون الحقيقة كذلك ولكن بما انني حذفت الاله الآب من تفكيري ، فيجب على الاقل ان اعتمد شخصاً يخلق القيم الاخلاقية .

يجب ان تنظر الى الاشياء نظرة واقعية .

وقولي اننا نخترع القيم لا يعني الا ان الحياة مبدئياً لا طعم لها ولا معنى ...

ان الحياة لم يكن لها ادنى معنى او قيمة قبل ان اوجد ، وان المعنى الذي يصبح لها فيما بعد ليس الا من نتاجي انا .. ليس معنى الحياة الا نتيجة لاختياري .

وهكذا تجدون انه في الامكان خلق طريقة خاصة لمعيشة مجتمع بشري .

النزعة الانسانية
L'humanisme

لامني البعض لانني تساءلت أليست الوجودية نزعة انسانية .

لقد قال لي هذا البعض : الم تكتب في روايتك الغثيان - *La* Nausée » ان اصحاب النظرية الانسانية كانوا على خطأ ؟ الم تهزأ في كتابك من رجل يمثل هذه النظرية ؟

الحقيقة ان كلمة « نزعة انسانية » تحمل مفهومين مختلفين .

المفهوم الاول يستطيع ان يتلخص في ان يعتبر الانسان مبدءاً عالياً وهدفاً سامياً وبهذا المفهوم نستطيع ان نجد هذه النزعة عند جان كوكتو [١]

(١) جان كوكتو : كاتب مسرحي فرنسي معاصر .. وهو الى ذلك يعمل في النقد الادبي، والسينما والمسرح .

في روايته « دورة العالم بثمانين ساعة » حيث يصيح أحد الاشخاص وهو يحلق بطائرته فوق الجبال الشاهقة : « ان الانسان عظيم ورائع » .

وهذا يعني انني شخصياً لم اخترع الطائرة ولم أقم ببنائها ، ولكن ذلك لا يمنع ان استفيد من هذه الاختراعات الخاصة التي قام بها انسان معين او افراد بالذات وانني استطيع كانسان ان افخر باعمال بعض افراد آخرين وهذا يفرض اننا نستطيع ان نعطي قيمة للانسان نتيجة لاعمال بعض الاشخاص الانسانيين .

النزعة الانسانية التقليدية

ان هذه النظرية غير معقولة ومتناقضة بذاتها ...

اذ ان الانسان لا يحق له ان يعطي حكماً على الانسان ، ان كلباً او حصاناً يحق له ذلك ، ولكنه كما اعلم لا يستطيع ان يقوم بذلك ...

ان الوجودية تعفي الانسان من مثل هذه الاحكام . ان الوجودية لا تعتبر الانسان هدفاً وغاية لانه دائماً في طور التكوّن .

ولا يجب ان يذهب بنا التطرف التقليدي فنظن ان هناك انسانية نستطيع اعتبارها خالصة التكوين فنقع في نظرية اوغست كونت[1] Auguste Comte

(١) اوغست كونت . فيلسوف فرنسي عاش في القرن التاسع عشر . وكانت فلسفته وضعية وايجابية ... ولكنه ابتكر في اواخر حياته ديناً خاصاً به اسماه دين الانسانية « La religion de l'humanité »

التي تتحاشى نظرتها المغلقة الى فكرة الانسانية .

النزعة الانسانية الوجودية

وهناك المفهوم الثاني للنزعة الانسانية وهو يعني ما يلي :

ان الانسان يبقى دوماً خارج ذاته . وان الانسان بارتمائــه خارجاً عن نفسه وبذوبانه بعيداً عن نفسه ، يحيي الانسان ...

وهو باتباعه هذه الحركة الاندفاعية الفوقية يستطيـع ان يوجد ويعيش .

والانسان لا يبلغ انسانيته الا اذا تابع حركة التعدي والسبق هذه ...

والانسان لا يسبق او يتجـاوز الا الانســان ، فالتسابق حاصل في قلب الانسان او الانسانية .

وليس هناك في الواقع الا فضاء واحد هو فضاء الانسانية ، فضاء الذاتية الانسانية .

التجاوز
La transcendance

ان هذا التجاوز الذي يحدث في صميم ذاتيـــة الانسان ؛ يدخل في تركيب الكائن الانساني نفسه ، بمعنى ان الانسان ليس منكمشاً على نفسه مقفلا عليها ولكنه يعيش دوماً في عالم انساني ؛ هذا هو ما ندعوه انسانية وجودية .

من الواضح اذن ان المقصود بالتجاوز هنا هو

معنى خروج الانسان منطقياً متعدياً نفسه في عالم انساني ذاتي ...

ولا نقصد طبعاً ان نعتبر الله التجاوز المطلق الذي نندفع بذاتيتنا نحوه .

هذه هي النزعة الانسانية الوجودية :

هي انسانية لاننا ندعو الانسان لان يعتبر انه لا يوجد مشترع غيره ، انه هو وحده خالق القيم وباعث الحياة في كل ما يختاره من اعمال بكامل حرية ...

الوجودية والالحاد

Athéisme

من كل ذلك نرى ان كل ما وجه الينا من انتقادات ليس الا انتقادات ظالمة .

الوجودية ليست الا جهداً لاعتماد الالحاد مبدأ ننطلق منه لنخلص الى جميع النتائج الممكنة .

الوجودية لا تسعى ابداً لتدفع الانسان الى غياهب اليأس القاتل .

اما اذا اردنا ان نعتبر عدم الايمان بالله يأساً فان الوجودية تستقي من يأس مرير .

ان الوجودية ليست فلسفة تسعى للتدليل على وجود الخالق .

ان كل ما تريد الوجودية اظهاره هو انه حتى لو كان الله موجوداً لما تغير شيء ، ولما استطاع وجوده

ان يحدث اي تبديل .

الخلاصة – النتائج

هذه وجهة نظرنا .

ليست القضية ان نؤمن بوجود الخالق ، ولكننا نعتقد ان المشكلة ليست مشكلة وجوده ام لا .

المشكلة هي ان الانسان يجب ان يجد نفسه الضائعة ، ويجب ان يقتنع ان اية قوة لا تستطيع ان تخلصه من نفسه ...

وهكذا تكون الوجودية فلسفة تفاؤل ، ومذهب عمل وحركة ...

ولكن المسيحيين حين يخلطون رياء وبدافع ايمان فاسد بين يأسهم ويأسنا يتهموننا باننا يائسون ...

انتهت محاضرة سارتر وتليها مناقشات حول هذه المحاضرة ...

مناقشات

سؤال :

لا ادري اذا كانت الرغبة في الافهام قد نجحت او انها قد ادت الى نتيجة عكسية .

ان كلمات : كيـأس Désespoir . واهمـــالية Délaissemeut لها قوة تعبير لا تجارى في مقطـــع وجودي . ويظهر لي ان القلق او الكآبة Angoisse او اليأس اشياء تتعدى مجرد الاختيار الذي يقوم به انسان فرض عليه ان يختار ويقرر .

ان هذه العواطف ليست دائمة التردد . اننا قد نسلم بأننا نختار في كل لحظة اما ان نسلم بأن عاطفة عميقة كالقلق او اليـأس هـي كثيرة الـتردد فهـذا من غير المعقول .

جواب ج.ب.سارتر

انني حتما لا اعني إنه عندما اختار بين قطعة الف فرنك او قطعة حلويات فانني اختار وانا قلـق . ان القلق شيء لا يتغـير ، بمعنى ان اختياري لمشروعي

الاساسي لا يتغير . ان القلــق كما افهمه هو عــدم استطاعتي الاعتماد على اي تبرير لعملي واختيـاري ، والقلق والكـآبة همـا شعور ناتج عن مسؤوليتي تجاه الاخرين .

سؤال :

انني المح الى مقالـك في « Action » ويظهر لي ان وجهة نظرك قد ضعفت وتضعضعت نوعاً ما بالنسبة لذلك المقال .

جواب ج.ب.سارتر

انني اجيب بكل اخلاص ، انــه قــد يكون موقفي قـد ضعف في المقـال المنشور في « Action » ومرد ذلك الى انه قد يحدث ان يـأتيني اشخاص من غير اهل الاختصاص فيطرحون علي اسئلة فاجد نفسي امام حلين .

اما ان ارفض الجـواب ، او اجيب بتبسيط وتوضيح وتقريب لمفهوم العامة .

الانضواء والتبسيط

وقد اخترت الحل الثاني . والواقع انـه عندما نعرض بعض النظريات في صف الفلسفة فاننـا نضطر الى التبسيط والنزول الى مستوى الطلبة . وليس ذلك شيئاً غير مرغوب فيه .

اننا في مجـال نظرية انضوائيـة : فيجب ان تنضوي الى اقصى الحدود .

اذا كانت الفلسفة الوجودية تـدعي ان الوجود يسبق الجوهر فان الوجودي يجب ان يرهق نفسه من اجل هذه الفلسفة وان يعيشهـا لا ان يعرضها في كتب جافة .

فاذا اردتم ان تجعلوا من هـذه الفلسفة فلسفة انضواء فيجب ان تقربوها لافهـام الذين يناقشونها على صعيد السياسة او الاخلاق .

انـكم تعترضون على كلمة « نزعة انسانية » ولكن المشكلة تطرح اليوم على هذا الاساس . واذا اردتم ان تبقوا الموضوع – موضوع الوجودية – ضمن نطاق الجدل الفلسفي البحت فانكم لن تجنوا فـائدة ترجى خلف ذلك. يجب ان تقتنعوا بوجوب تبسيط الوجودية وجعلها شعبية على ان لا يكون ذلك سبباً في تبديلهـا او المغالطة في مبادئها .

سؤال

اما الذين يريدون ان يفهموك فانهـم يستطيعون ذلك ببذل الجهد . واما الذين لا يريدون ان يفهموك فانهم لن يفهموك ابداً .

جواب ج.ب. سارتر

يظهر لي انك ما زلت تتصور الفلسفة بطريقة اثبتت الوقائع عقمها . ان الفلاسفة لم يتعرضوا لهجمات الفلاسفة الاخرين فحسب . ان الفلسفة اليوم نزلت الى السوق واختلطت بالجماهير . الم يـنزل ماركس فلسفته الى مستوى شعبي جداً وكتابه البيان « Le manifeste »

ليس الا تبسيطاً شعبياً لافكاره الفلسفية العميقة .

سؤال :

ان رغبة ماركس واختياره في الاساس ، كانا ثوريين . ان ماركس يهيء ثورة لذلك لا يستغرب عمله هذا .

جواب ج.ب. سارتر

ان من الصعب ان نقول ان ماركس اختار ان يكون ثورياً في البدء ثم فيلسوفاً ، أو نقول انه اختار ان يكون فيلسوفاً ثم ثورياً .

انه فيلسوف وثوروي معاً .

لا اجد اذن اي معنى لقولك انه اختار ان يكون ثوروياً في البدء .

سؤال :

ان البيان الشيوعي « Le manifeste communiste » لا يصح اعتباره تبسيطاً لفلسفة ماركس ، انه سلاح معركة . ولا استطيع ان اعتبر الا انه عمل انضوائي .

ان ماركس الفيلسوف ما ان توصل الى ان الثورة واجبة حتى كان أول عمل قام به هو (بيانه الشيوعي) وهذا الكتاب هو مؤلف سياسي بحت .

(البيان الشيوعي) هو رابطة بين فلسفة ماركس والشيوعية . ومهما يكن نوع الاخلاق في فلسفتك

فاننا لا نجد هـذه الرابطة بـين الاخلاق التي عرضتها والفلسفة الوجودية التي اعطيتها ، لا نجد هـذه الرابطة التي نجدها بـين فلسفة ماركس وبين سياسة ماركس في (البيان الشيوعي) .

جواب ج . ب . سارتر

ان ما قصدته هـو عرض مذهب اخلاقي مستمد مـن الحرية وبما انني لا اجد اي تناقض بين هـذه الاخلاق وبين فكرة الحرية فانني اعتبر نفسي قـد قمت بعمل كامل غير منقوص .

ان انواع الانضواء كثيرة وهي تختلف متـطورة مع العصور المتعاقبة .

لقد جاءت حقبة من الزمن كان الانضواء فيه يعني ان نقيم ثورة جـارفة فـكان ماركس وكان « بيـانه الشيوعي » الداعي للثورة ولاقامة نظـام اقتصادي وسياسي جديد .

مفهوم الانضواء الوجودي

وفي عهد كعهدنا الحـالي في فرنسا ، حيث تتناحر عدة احزاب يدعي كل منها انه يريد الثورة ، في عهـد كهذا لا يعني الانضواء ان ننضم الى احـد هـذه الاحزاب ونعمل له ، ولكنـه يعني ان نوضح المفاهيم لكي نظهر حقيقة موقف كل منهـا فنستطيع ان نؤثر على هذه الاحزاب الثوروية .

السيد نافيل M. Naville

ان السؤال الذي يمكننا طرحه بناء على النقاط

التي اوضحتها ، هو : الا يمكن اعتبـــار نظريتك متطورة بحيث تظهر قريباً كاحياء للنظرية الاشتراكية الراديكالية (الاشتراكية المتطرفة) .

الوجودية والاشتراكية الراديكالية

انك في الواقع تجول في مختلف وجهات النظر ولكن المدقق في تلك الوجهات التي تحـاول ان تطل منها يرى ان النقطة التي يصح اعتبارها نقطة تجمـــع وجهات نظرك هي: النظريةالتحررية Le libéralisme . ان فلسفتك تحـاول في هذه الظروف الخاصة التي نجتازها اليوم — وهي ظروف تاريخيـة — ان تحيي الحركة الاشتراكية الراديـكالية والحـركة التحررية الانسانية .

واول ما يعطي فلسفتك صفة خاصة هو ان الازمة العالمية الاجتماعية الحالية لم تعد ترضى بالحركة التحررية القديمة ، بل انهـا تتطلب تحررية جديدة تحررية متألمة وقلقة .

الوجودية والتحررية الجديدة

Néo - libéralisme

واننا نستطيع ان نوجد سبباً لهذا التجديد الذي ادخلته على تلك النظرية القديمة معتمدين في ذلك على تعابيرك الخاصة .

ان النتيجة التي يخلص اليها المدقق بعرضـــك

للوجودية هي ان الوجودية مـــذهب انساني ، وهي فلسفة الحرية . وهذه الحرية هي انضواء سابق للانضواء . وهذا الانضواء المتقدم لا يعدو ان يكون مشروعاً لا يستطاع تعريفه . وانت ترفع الى المكان الاول – كالكثيرين غيرك – الكرامة الانسانية ؛ (وليس هذا بجديد فهو لا يعدو ان يكون أخذاً عن النظريات التحررية القديمة) .

ولكي تستطيع ان تبرر موقفك فانك تعمد الى التفريق بين مفهومين لكلمة : « ظرف انساني » وبين مفهومين لمجموعة من الكلمات والتعابير المستعملة جداً . وحتى تنتقد هذه التعابير التي تحمـل معاني غامضة تخلق لها معنى جديداً ومفهوماً خاصاً .

وانني اتغاضى الآن عن كل ما يتعلق بفن صياغة الفلسفة – مع انها قضية هامة – واهتم بقضية التعابير والمفاهيم هذه فأجد انك برغم التفريق بـين المفهومين لكلمة نزعة انسانية ، « المفهوم القـديم والمفهـوم الوجودي الجديد » ورغم انك تزعم انك تعتمد على الثاني فانك ما زلت متشبثاً بالمفهوم التقليدي الاول .

ان الانسان يظهر كاختيار حر حسن جداً انـه قبل كل شيء وجود شخصي في الوقت الحاضر ومتحرر من كل حتمية طبيعية . انه لا يعرّف قبـل ان يوجد ولكن بناء على حاضره الفردي .

الطبيعة الانسانية

وليس هناك طبيعة انسانية ارفـــع منـه ولكن

وجوداً خاصاً يعطى له في زمن محدد من تاريخه .

انني اتساءل اليس هذا التحديد في جوهره تحديداً لنوع من « الطبيعة الانسانية » اليس ذلـــك شكلاً جديداً « للطبيعة الانسانية » التي يعبر عنهـا هنـــا بكلمات جديدة ؟

الا يشابه هذا التحديد الجديـد ذلـــك التعريف الذي اعطي للطبيعة الانسانية في القرن الثامن والذي ثرت ضده ؟

أنا أرى ان تعبير « ظرف انساني » لا يعـدو ان يكون الا نظرة جديدة الى « الطبيعة الانسانية » مهما بذلت من محاولات لاخفاء الفكرة الاساسية .

فكرة « الظرف الانساني »
تأخذ مكان
« الطبيعة الانسانية »

فاذا افترضنا « الظروف الانسانية » كوحـدة ايجابية ، فاننا نعود بذلك الى شكل آخر من اشـكال « الطبيعة الانسانية » التي انكرت وجودها . انهـــا طبيعة – ظرف اذا اردت – .

ان « الطبيعة الانسانية » تحدد في حياتنا الحاضرة باشكال اجتماعية عامة ، وبطبقات اجتماعيـة تتضارب مصالح بعضها مع مصالح الاخرى . وتحـدد بصراع يتخذ اشكالا عديدة بين فئات مختلفة متمايزة المصالح متنافرة الاهداف ، ان « الطبيعة الانسانية » تحـــدد

اليوم باختلافات بين الشعوب ، واختلاط بين الاجناس واشتباك بين الوان البشر .

كل ذلك يجعل تحديد « الطبيعة الانسانية » من الصعوبة بمكان لانها فقدت الصفات المتوازية التي كانت لها في عهد كالقرن الثامن عشر حيث كانت هذه الطبيعة لا تختلف اختلافاً بيناً عن فكرة التطور العلمي الدائم .

اما اليوم فاننا عمدنا الى تحويل في الكلمة واصبحنا نقصد « بالظروف الانسانية » اشياء غامضة وعامة ومفروضة علينا فرضاً ، يصعب تحديدها ، وفي التعبير الجديد ادخلت عناصر عاطفية ومؤلمة مما يجود به الخيال .

طبيعة حقيرة

وهكذا تتعلق الوجودية بطبيعة انسانية جديدة ولكنها ليست كالطبيعة التقليدية : فخورة بنفسها ، قوية خلاقة ، ولكنها طبيعة واهنة ضعيفة ، غير واثقة بنفسها وقانطة .
وفي الواقع انه عندما تتكلم الوجودية عن طبيعة انسانية ، فانها تتكلم عن طبيعة لم تنضو بعد فيما نسميه مشاريع ، فهي بالتالي ليست ظروفاً بل انها ما قبل الظروف Pré-Condition .

فالمقصود اذن هنا هو نوع من : سابق — انضواء Pré-engagement وليست انضواء كلياً

السابق انضواء

« فالظروف » المقصودة هنا لا توسم بفعل الصدفة بصفة « الانسانية » .

وفي الحقيقة ان ما كان يقصد بـــه في القديم بكلمة « طبيعة انسانية » يسهل تحديـــده بالنسبة لكلمة « ظروف » الوجودية الجديدة .

الطبيعة الانسانية ليست عرضة للتبديـــل كما هي الحال مع الظروف الانسانية .

وهكذا يجب ان لا توصف الوجودية بالنزعـــة الانسانية بل بالنزعة الطبيعية « Naturalisme » ان النظرية الطبيعية تفرض حقائق اكثر شمولا من الحقائق التي تفرضها النزعة الانسانية ...

الواقع انه يجب توسيع هذه المناقشة فـــيما يخص « الطبيعة الانسانية »لانه يجب اخذ الناحية التاريخية بعين الاعتبار . ولكن يجب الاقرار بقيمة التاريخ في ميزان الصحة ، والوجودية على وجه العموم لا تعطي نصيباً كبيراً منها للتاريخ .

الوجودية تنكر
الحقيقة التاريخية

فالوجودية تنكر على التاريـخ الطبيعي صحته ، وهي طبعاً تنكر على التاريخ الانساني ذلك . مع ان التاريخ هو خالق الافراد .

ان التاريخ هو الذي يساعد الافراد منذ يكونون

في بطون امهاتهم على ان يخلقوا ويظهروا في عالم يضعهم امام ظروف مجردة ، بل امام عالم كانوا فيه دوماً افراداً يتأثرون بظروفه الحية ويؤثرون فيه كما يؤثر الطفل على امه عند بدء اولى حركاته .

من هنا فقط نستطيع ان نتكلم عن ظرف انساني كحقيقة اولى . يجب ان نقول ان الحقيقة الاولى هي حقيقة طبيعية لا حقيقة انسانية . انني لا اعرض هنا الا افكاراً معروفة وبديهية .

وفي الخلاصة اذا لم يكن هناك « طبيعة انسانية » مجردة ، واذا لم يكن هناك جوهر او ماهية للانسان مستقلة او سابقة لوجوده ، فان من المؤكد ايضاً انه ليس هناك « ظرف انساني » بصفة عامة ، حتى لو اعتبرنا ان « ظرفاً انسانياً » يعني مجموعة من المواقف الحية .

ان الماركسية تكوّن رأياً مختلفاً في الموضوع .

الرجل الموضوعي

L'homme Objectif

الانسان في الطبيعة ، والطبيعة في الانسان . وهذا يعني ان هنالك قوانين تفسر حركات الانسان واعمال اعضائه ، وهذه القوانين تقع تحت نظر المدقق العالم كما يقع تحت نظره كل ما هو متصل بالمواد العضوية او النباتية .

فالانسان يقع تحت درس علمي حسي وحي .

فنظرية الطبيعة الانسانية تقترب من نظرية ماركس

اكثر من اقتراب نظرية الظروف الانسانية منه .

النزعة الانسانية
والنزعة التحررية

من المؤسف ان كلمة « نزعـــة انسانية » اصبحت مستعملة اليوم لتعني تيارات فلسفية يصل عددها حتى الخمسة والستة .

كل منـــا اليوم ذو نزعـــة انسانية ، حتى بعض الماركسيين الذين يكتشفون انهم عقلانيون وتقليديون، فهم انسانيون بمعنى تحرريون منسجمون مـع ظروف العصر الحاضر .

اذا زعم الماركسيون انهم ذوو نزعة انسانية فـان مختلف الاديان : المسيحية ، البوذية ، الاسلام ، والنظرية الوجودية بدورهـا وجميـــع الفلسفات ، بصورة عامة ، يصح ان تعتبر ذات نزعة انسانية .

وفي ايامنا هذه تدعي كثير من النظريات الفلسفية انها نظريات انسانية .

المسيحية والوجودية

وهذه النظريات ترفض ، بالرغم مـــن ادعائهـــا العكس ، ان تنضوي في الحياة الاجتماعية ، والسياسية وحتى في المجالات الفلسفية .

والمسيحية اذا ادعت الميـل الانساني فلأنهـــا في الواقع ترفض ان تتبنى الانضواء ، وترفض ان تدخـل في صراع القوى التقدمية لانهـا تقف ضد التيـــار

الثوري .

والمغالطون في الماركسية يرفضون فكرة الانسانية لانهم يتراجعون امام مستلزمات الموقف الحالي في العالم .

والوجودية التحررية التي نحن بصددها لم تستطع ان تتخذ لنفسها موقفاً تحدده الاحداث والعوامل الخارجية والموقف التقدمي الوحيد الذي نستطيع ان نذكره في هذا المقام هو موقف الماركسية .

ان الماركسية هي الوحيدة التي تطرح على بساط البحث المشاكل العميقة التي يعانيها العصر الحاضر .

الانسان والمحيط

ليس صحيحاً ان للانسان حرية اختيار تجعله يعطي مفهوماً جديداً لعمله لم يكن يحمله قبل الاختيار الحر .

لا يكفي ان نقول ان الافراد يحاربون دون ان يدروا من اجل حريتهم .

واذا اعتبرنا ان ذلك صحيحاً فاننا نصل الى النتيجة التالية : وهي ان كل انسان يستطيع ان يؤدي عملاً فعلياً ويستطيع ان يؤثر تأثيراً نسبياً في ميادين تتعدى شخصه وتسيطر عليه .

لانه اذا صح ان الانسان يحارب من اجل حريته دون ان يكون له علم بذلك ، ودون ان يكون واعياً للطريقة التي بها يحارب ، فان ذلك يؤدي الى

القول ان اعماله هذه تستتبع نتائج لا يستطيع ان يعي كل عواملها وكل مظاهرها .

ولكن الانسان يسعى على الرغم من ذلك ان يجاهد ويسعى ملتزما باعماله التأثير الذي يحدثه فيه الاخرون . ونحن لا نكتفي بتأثير يحدثه الاخرون من الاشخاص المحيطين بالانسان بل تدخل ايضاً عامل المحيط الذي يتحرك فيه الجميع .

ان الاختيار حسب رأيك (الكلام موجه الى جان بول سارتر) يتحول الى سابق – اختيار Pré-choix واعود دوماً الى هذا التعبير لان فكرة الحرية عندك مرتبطة « بسابق – عدم اهتمام » Pré-indifférence.

ولكن نظريتك المتعلقة بالحرية .وتحديد « الظرف » ترتبط بتعريف خاص للاشياء المحسوسة يصح ان نقف عنده قليلاً .

عالم الادوات
Ustensilité

وعلى ضوء تنافر المخلوقات وتعددها وعدم توازيها ، تبني عالماً متنافراً من الاشياء المحسوسة والالات المستعملة يومياً .. وهكذا فان كل سببية تصبح غير ذات معنى اللهم الا تلك الصلة الغريبة الغامضة التي تجمع الادوات المتنافرة ... هذه الصلة السببية في جوهرها تبقى ضعيفة لا قيمة لها .

فالفرد الوجودي يتعثر في عالم موجودات حسية ، ومشاكل وعراقيل متعددة مرتبطة برغبة الاستعمال،

ومتصلة باعتمادها على بعضها فيما تقدمه من فائدة عملية .

اللاذاتية والموضوعية

Extèriorité et Objectivité

فهذه النهائية Finalisme فيما يتعلق بالآلات والادوات نهائية لا تقر السببية ولا ترفضها Finalisme a - causal . ولكن اين يبدأ هذا العالم (عالم الأدوات) واين ينتهي ؟

ان التعريف الذي تعطيه لهذا العالم تعريف كيفي واعتباطي لا يتناسب مع معطيات العلم الحديث .

وفي رأينا انه لا يبدأ ولا ينتهي في مكان معين . ان ما تريد الوجودية ان تحدثه من أقسام في الطبيعة لا يعدو ان يكون محاولة خاطئة .

العالم واحد لا يتجزأ

العالم واحد في نظرنا وهذا العالم الذي يضم الانسان كما يضم الادوات التي يستعملها الانسان هو وحده الذي يستطيع ان تكون له صفة موضوعية .

وانني اعتبر ان حريتكم ، وان مثاليتكم تقوم في الاساس على احتقار الاشياء المحسوسة .

وهذه الأشياء المحسوسة بعيدة كل البعد عن التعريف الذي الصقتموه بها .

ان الأشياء المحسوسة والأدوات لها وجود خاص قائم بذاته . ولكن هذا الوجود ليس وجوداً حياً بل هو محروم . ان هذا الوجود ليس منبعاً تتفجر

منه التكيفات التي نشاهدها كما انه ليس له اية قيمة مسبقة .

وهكذا فان العالم المحسوس يبقى في نظر الوجوديين عالماً ضعيفاً لا اثر للحياة فيه ، وتبقى المادة اداة لا خلق فيها ولا ابداع .

فالوجودي يعتبر العالم المادي عالماً تسيطر عليه الامكانية والصدفة ، اما الرجل الماركسي المادي فيُعتبر على العكس من ذلك تماماً ان العالم الحسي هو القادر على الخلق وهو المبدع الوحيد .

الانضواء الوجودي انضواء اعتباطي

من اجل ذلك كله فانتم الوجوديون لا تعرفون انضواء حياً لان انضواءكم اعتباطي وليس حراً كما تعتقدون .

وانتم تبدلون في نظرية ماركس عندما تعتبرون انه عرّف الفلسفة عندما دفعها للانضواء .

لا ! ان الانضواء ، أو بالأحرى الحيوية الاجتماعية والسياسية الناشطة كانت تحديداً أعم واشمل لتفكير ماركس .

ان ماركس لم يحدد اراءه ونظرياته الا اعتماداً على تجارب حية عديدة . وان التطور في تفكير ماركس يسير جنباً الى جنب مع التطور السياسي والاجتماعي والاقتصادي .

الفلسفة والسياسة

وان هــذه الحقيقة عرفت في جميع الفلسفات على مقادير مختلفة : فاذا صح ان (كانت) كان فيلسوفاً خلق مذهباً واقام صرحاً ولم يهتم بان يدخل المعترك السياسي والاجتماعي من بعيد او قريب ، فـــان ذلك لا يعني ان فلسفة (كانت) لم تقم بأي دور سياسي او اجتماعي .

ان « كانت » هو « روبسبيير الألماني » كما عرّفه هاين Heine .

ليس صحيحاً ان الفلسفــة لا تقوم الا بـــدور سياسي غير مباشر . ان دورها على العكس من ذلك دور مباشر فعال .

الوجودية والثورة

واذا ارادت الوجودية ان تكون فعالة فيما يتعلق بالتأثير الثوروي السياسي ، وجب عليها ان تعمد الى عملية نقد – ذاتي auto - critique ...

وهذا عمل محتم عليها وان كانت لن تقوم به عن طيبة خاطر .

ان على الوجودية ان تتحمل صراعاً في داخلها ، عليها ان تقيم في قلبها ديالكتيكا . ان عليها ان تقوم بهذا النشاط الداخلي ساعية لتشذيب نفسها بنفسها . وكلنا يعلم ما جرته الوجودية من بلاء على بعض من اساء فهمها أو اساء تطبيق تعاليمها .

الوجودية ! فلسفة اية طبقة

كتب احد الوجوديين يقول ما معناه ان النظرية تستطيع ان تهيء ثورة محددة الأهداف والعوامل . وهذه الثورة تعتمد على طبقة البورجوازية الصغيرة أي على ما نسميه بالطبقة المتوسطة الميسورة، وتستطيع ان تكون ثورة عالمية .

فهذه الطبقة هي التي ستقود الثورة الوجودية العالمية . وانا اذكر مثل هذا الكاتب واستطيع ان اذكر امثلة كثيرة غيره .

الوجودية والسياسة

كل ذلك يدل على ان بعض الوجوديين قد تحولوا عن الفلسفة المحضة وحاولوا ان يقوموا بنشاط سياسي وان يوجدوا نظرة اجتماعية سياسية ترتبط بالوجودية الفلسفية وتكون نتيجة لتعاليمها .

واعود فأقول ان هذه المحاولات لا تعدو ان تكون عودة الى النظرية « التحررية — الاشتراكية الجديدة » . Néo - radical - socialisme

ان في هذه الرجعة الى النظرية التحررية مع تجديدها ، رجعة خطرة .

المهم اننا لا نبحث عن التصاق ومنطق بين هذه الآراء الوجودية ، بل اننا نسعى لاظهار هذه الفكرة الأم والرأي المسير لجميع الآراء وتحديد الاتجاه العام للوجودية .

ان الوجودية لا تدعو الناس الى نوع من التأمل الحالم كما انها لا تدعوهم الى القنوط واليأس والتجلد . ان الوجودية ليست من التناقض او من السخف حتى تدعو الى مثل هذه الاتجاهات التي عفّى عليها الزمن .

قد نجد عند بعض الوجوديين انضواء شخصياً يقترب من هذا المعنى (كما نجد عند كير كجارد مثلاً) ولكن الوجودية التي تبحث عن انضواء جماعي لا تستطيع ان تنكر انها تقع في مغالطة عظيمة اذا اقرت اتجاهاً كالتجلد والصبر او التأمل والقنوط .

ولكن لماذا لم تقم الحركة الوجودية بدور توجيهي ؟ ولماذا لم تكن قائدة في بعض الظروف التي كانت تستطيع فيها ان تؤدي دوراً من هذا النوع .

اذا كان صحيحاً ان الوجودية تتبع الاتجاه الذي حدده سارتر فان الواجب كان يقضي عليها ان تقوم بدور رئيسي عام ١٩٤٥ في فرنسا ، كان عليها ان تقوم بعد انتهاء الحرب بدور سياسي توجيهي .

جواب ج.ب. سارتر

لقد عرضت لاشياء كثيرة ، ثم استطردت استطرادات جمة مما يجعل من الصعوبة الاجابة على كل ما ابديته من افكار .

ولكنني سأحاول رغم ذلك الاجابة على عدة نقاط استطعت ان اسجلها .

انني أرى قبل كل شيء انك اتخذت موقفاً

تقليدياً متطرفاً .

لقد قلت اننا نتخذ موقفاً قديماً ونتبنّى نظريـــة سبقت النظرية الماركسية ، اي اننا نحاول العودة الى الخلف ولا نسعى للتقدم على اي حـــال . وأرى ان مثل هذا الاتهام يحتاج الى اثبات لم تستطع ان تقدمه .

لن أناقش كثيراً هذه النقطة ولكنني سأحاول ان أبين كيفية تسرب هذا المفهوم الذي تلصقه بالحقيقة الى تفكيرك .

الماركسية والارث التقليدي

Marxisme et dogmatisme

انك تعتبر ان بالامكان الحصول على يقين خالص فيما يخص البحث عن الحقيقة ... انك تنظر الى الاشياء عبر هذا الايمان بيقين ممكن دائماً . وعلى هذا الاساس كان انطلاق انتقاداتك .

وقلت ان الانسان ، كل انسان ، لا يعدو ان يكون موضوعاً او غرضاً يقع تحت طائلة البحث ... ولكن اذا صح ان كل انسان موضوع بحث Objet فمن اين يحصل اليقين ؟

لقد قلت ان الانسان يأبى باسم الكرامة الانسانية ان يعامل أخاه الانسان على اعتبار انه غرض او موضوع .

وهذا خطأ !

والصحيح أنه يأبى ذلك لأسباب فلسفية ومنطقية فاذا افترضت وجود عالم من المواضيع والاغراض فان الحقيقة تضيع لان عالم الموضوع والغرض هو عالم الممكن لا عالم اليقين ...

يتحتم عليك ان تقر بأن كل نظرية سواء أكانت فلسفية ام علمية تبقى في عالم الممكن .

والدليل الواضح على قولنا هذا ما نراه من تعدد النظريات العلمية والتاريخية ... فجميع هذه النظريات تبقى نظريات كلها مرشحة لان تدخل اليقين المطلق ولكنها لم تتعد حتى الآن مرحلة الترشيح او مرحلة الإمكانية ...

نقد الفلسفة الماركسية

فاذا اعتبرنا العالم عالم مواضيع واغراض تخضع للبحث العلمي والتاريخي ، واذا اعتبرنا ان هذا العالم عالم واحد ، صح عندها ان نعتبره عالم الممكنات probabilité .

وبما ان هذا العالم متعلق بعدة حقـــائق لاحقة ومكتسبة يعتمد عليها في الشرح ، فاين هي الحقيقة واين هو اليقين ؟

ان نقطة انطلاقنا الذاتية تصل الى عدة يقينيات ومن هذه اليقينيات نستطيع ان نعادلكم ونساويكم على صعيد الممكن .

فاذا كنتم لا تعرّفون « الحقيقة » فكيف نستطيع ان نتصور فلسفة ماركس ؟

هل نستطيع ان نتصوّرها الا على انها نظرية تظهر وتختفي وتعدّل دون ان تتعدى قيمة : النظرية ؟

وكل نظرية يصح اعتبارها مصيبة او مخطئة ما لم يقع اليقين على ناحية من الناحيتين .

الماركسية والوجودية

كيف نستطيع ان نبني نظرية ديالكتيكية للتاريخ اذا لم نبدأ على اساس عدد معين من القواعد ؟

وهذه القواعد التي تقوم مقام الاساس في كل نظرية نجدها عند ديكارت في «الآنية» «cogito» « انا افكر، اذن انا موجود » Je pense donc J'existe.

وهذه القواعد هل نستطيع ان نوجدها اذا لم ننظر الى القضية من ناحية ذاتية ، شخصية ؟

لم ننكر ابداً ان الانسان لا يعرف الانسان في الواقع الا باعتباره غرضاً .

فالانسان غرض لاخيه الانسان .

ولكن يجب لكي تتم هذه المعرفة ان يكون الانسان فاعلاً Sujet اي عارفاً .

وتحدثني بعدها عن ظرف انساني او كما تسميه تارة اخرى « سابق – ظرف » .

وعن حتمية وسابق حتمية pré - détermination

– شدد كيركجارد على هذه الفكرة عندما هاجم نظرية هيجل — ان كل بناء فلسفي يتجرد حتى يضيع فيه الفرد هو بناء مناقض لنفسه ، لأن لكل فلسفة خالقا ، ولكل فلسفة أسس في نفس خالقها ، ولكل فلسفة منبع في ذاتية الفيلسوف ، في ذاتية الفرد . « المترجم »

وما فاتك هو اننا لا نخالف الماركسية في هذا الميدان مخالفة تامة . فلا تستطيع ان تنتقدني كما لو انني من رجال القرن الثامن عشر الذين جهلوا كل ما يتعلق بالقضية .

فيما قلته عن الحتمية نحن نعرفه منذ زمن بعيد ، والمشكلة الاساسية بالنسبة لنا هي : متى وفي أية ظروف يحدث اليقين الشامل المطلق ... فاذا كنتم لا تعترفون بوجود طبيعة انسانية ، فلماذا تبقون مكاناً في نظريتكم لنظريات وقواعد تعتبر عندكم وسائل للشرح والتفسير الفلسفي والتاريخي . لماذا تبقون من مبادىء عامة تعتبرونها صالحة لتفهم العصور التاريخية . اننا على اتفاق معكم فيما يتعلق بهذه النقطة . ليس هناك « طبيعة انسانية » عامة ، وإلا لصح القول ان كل عصر يتطور بناء على قوانين ديالكتيكية ، ولصح القول ايضاً ان كل انسان يختلف باختلاف العصر لا باختلاف « الطبيعة الانسانية » ...

جواب . نافيل :

عندما تحاول ان تفسر بطريقتك الخاصة تقول اننا نعود دائماً الى الاعتماد على نوع معين من «المواقف».. Situation . اما من ناحيتنا فاننا نعتمد دوماً على تباين وتشابه هذه الحياة المختصة بعصر معين ، بالنسبة لعصرنا الذي نعيش فيه . ثم نقول اننا نحاول ان نشرح هذا التشابه معتمدين على مبدأ مجرد فلا نصل في النهاية الى اية نتيجة .

فأريد ان اسألك ان تتصور معي عصراً يأتي بعد

ألفي سنة . فهل يستطيع هذا العصر ان يحلل حالته الحاضرة معتمداً على ما سبق ومستنيراً بفكرة « الطبيعة الانسانية » وحدها ؟

جان بول سارتر

اننا لم نفكر في يوم من الايام ان نتناسى « الظروف الانسانية » والنوايا الفردية . وان ما نسمّيه موقفاً Situation نستطيع ان نعرّفه على النحو التالي :
(الموقف هو مجموعة ظروف مادية و « تحليلية نفسية » Psychanalytiques ... وهذه المجموعة تستطيع في عصر معين ان تحدد مفهوم « الموقف » .)

نافيل :

انني لا اعتقد ان تعريفك مطابق لما اوردته في المحاضرة . وبالرغم من ذلك فان تعريفك للموقف وللظروف يبقى مغايراً للمفهوم الماركسي .

السببية La Causalité

ان تعريفك ليس دقيقاً وهو يخلص بمهارة من وجهة نظر اخرى . اما بنظرنا فان « الموقف » يعني (مجموعة قائمة بذاتها من الحتميات والتحديدات ذات الصبغة السببية Causal المطلقة السببية السكونية Causalité statistique .

سارتر :

انك تحدثني عن سببية سكونية (تخضع لاحصاء

حالات) وهـذا النوع من السببية لا يعني شيئـاً على الاطلاق . فهـل تتفضل بأن تشرح ما تعنيه بكلمة: سببية . ؟

نقد السببية الماركسية

فيوم تستطيع الماركسية ان تفسر السببيـة الماركسية فانني سأؤمن بها ايماناً قاطعاً . فعنـدما نحدثكم عن الحرية ، تجيبون : « عفواً لقـد نسيتم السببية » . هذه السببية السرية التي لا تعني شيئـاً إلا عند هيجل Hegel لا تستطيعون ان تفيـدونا شيئاً فيما يتعلق بها . انكم تحلمون « بسببية ماركسية » .

نافيل :

هل تقر بوجود حقيقة علمية ؟

الحقيقة العلمية

قد يوجد في بعض الحالات مكان للشك في وجود اية حقيقة . ولكن عالم المواضيع والأغراض — وآمل ان تكون معترفاً بوجوده — والعـالم الذي تهتم بـه العلوم يفرض حتماً ايماناً نسبياً بالحقيقة . والعلوم كما نعلم تعتمد على « مبدأ السببية » .

سارتر

ابداً . ان العلوم لا تعتمد على مبدأ السببية لأنهـا دائماً مجردة فهي تدرس عوامـل مجردة ولا تستطيع ان تصل بالتالي إلا الى سببية مجردة تختلف عن السببية الحقيقية . فالسببية العلمية تدرس مبادىء عـامة وتهتم

بارتباط الاحداث بعضها ببعض ، بينما تهتم الماركسية لمجموعة واجدة معينة تبحث فيه عن السببية ، فالسببية الماركسية ليست السببية العلمية .

نافيل :

لقد اعطيت مثلاً مطولاً عن الشاب الذي جاء يسألك المشورة ...

سارتر :

ألم يكن على صعيد الحرية ؟

نافيل :

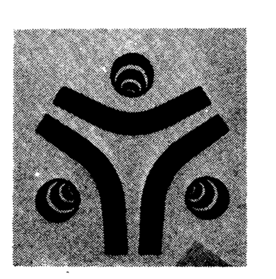
كان عليك ان تجيبه ؛ كان بالامكان البحث عن امكانياته ، عن عمره وأوضاع حياته الخاصة والمالية ، كان بالامكان اذن اعطاء حل ممكن لمشكلته ، كان بالامكان دفعه الى العمل .. على الأقل ...

سارتر :

اذا كان قد جاء يسألك المشورة فهو حتماً قد هيأ الجواب واختاره . وكنت احب ان اعطيه جواباً عملياً ولكن بما انه كان يبحث عن الحرية فانني فضلت ان اتركه يفعل ما يريد ...

لقد كنت اعرف ما يريد ان يفعله وقد فعله .

الفهرس



طبع هذا الكتاب على مطابع
دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر
بيروت - شارع سوريا
تليفون ٢٣١٩٣٠ ص.ب ١٣٩٠

في هذا الكتاب

- هذا الإنسان !.. الإنسان بمآسيه في غمرة الصراع الحضاري.
- إنه قلق، يضطرب في نفسه، ويضطرب في فكره.
- هو يبحث عن كوة ينطلق منها صوب الائتمان الذاتي.
- هذا الإنسان وجد له منطلق عند سارتر فانبعث منه بثقة وعزم.
- اكتشف سارتر حرية الإنسان في داخل الإنسان فمد له أصبعه يرشده إليها...
- أرادها له سلاحاً يعتد به في صراع الحياة فتغنى وفخر بها في كل ما قال وما كتب.
- إنه وجودي بكل ما تعني كلمة الوجود، وجد ذاته فعرف العالم منها وأدرك وآمن بأن لا قيمة للوجود إلا بقدر ما يحس به الإنسان الفرد...
- هكذا يبدو سارتر من خلال كتابته، ولنا أن نحكم بما نشاء فهو يقر لنا بحريتنا...
- وفي هذا الكتاب عرض لوجودية سارتر ودفاع عنها، أولئك الذين يسيئون فهمها، وتبرؤا صريحاً من الذين لا يحسنون تبنيها.

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان